هـ . ج . ولز مؤرخا

معالم تاريخ

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع فى التاريخ الحديث

الطبعة الثانية . القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

يقول كاتب التراجم اللامع أندريه موروا فى مستهل الفصل الذى عقده للحديث عن هـ . ج . ولز فى كتابه القيم « الشعراء والأنبياء » « صناعة النبوة من الصناعات التى لا يمكن ممارستها فى كل الأزمنة أو فى جميع الأمكنة ، فعصور الاستقرار والاطمئنان لم تكن قط فى حاجة الى الأنبياء ، ففى مثل تلك الأوقات يكتفى الكتاب بتصوير العصر الذى يعيشون فيه ويبذلون جهدهم فى الوصول بالشكل الى الكمال ، ولكن حينما تضطرب الأمور وتشيع الفوضى يتلفت المجتمع نحو الفنانين والعلماء الدارسين ليرى صورة عالم افضل ، وفى سنوات ما بعد الحرب التى عمتها الفوضى كان ولز الطبيب النفسانى والروائى معا » .

وكان ولزماينفك يبسط أفكاره ويعلن اتجاهاته فى بلاغة متألقة واقتناع ظاهر وحماسة تكاد تكون مصطبغة بالصبغة الدينية ، وهو كاتب جاد شديد العناية بالانسانية ومصيرها يلبح لها تارة بالمجتمع المثالى السعيد وطورا يحذرها عاقبة الامعان فى الأثرة والاسترسال مع النزعات الشريرة والمطامع الجنونية .

وقد نبغ ولز من غمار الشعب ، وهو يحدثنا فى ترجمته الذاتية عن والدته التى كانت خادمة فى منزل من منازل أحد أعيان الريف ثم أصبحت بعد ذلك مديرة لشؤون المنزل ، وكانت أمرأة متدينة تحترم النظام القائم رقيقة المشاعر صغيرة الجرم تزوجت جارها الذى كان بستانيا فى الضيعة المجاورة واسمه جوزيف ولز ، وكان مختلفا عنها كل الاختلاف ، وقد سبب لها متاعب كثيرة ، وتعاون الاثنان على فتح حانوت لبيع الخزف ، وكان ولز صبيا يقدر ذكاء أبيه وعقله الذى لم تزو الأيام نضارته .

وكانت سارة ولز تميل الى تنشئة ابنها نشأة صالحة ليكون فى المستقبل مواطنا محترم المكانة، وكانت تطمع فى ان يصير يوما ما بائعا فى حانوت بزاز ، وبعد أن تلقى القليل من التعليم دفعت به الى ذلك المجال ، وقد وصف آلامه وضيقه بالعمل فى الحانوت الأقليمى الذى كان يعمل به ، وقد عرف الام الفقر والحرمان وملل العمل بالحانوت وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وهو يعزو الى هذه السنوات العجاف فهمه لأحوال الطبقة الكادحة وما عرفه من أحوال الطبقة الميسورة فقد كان يجلس وهو غلام مع والدته فى بهو الخدم فى الأمسيات ويرقب حركات أصحاب الدار ، ويرى عيوب هؤلاء المسيطرين على حياة الناس ومصائرهم ، **وقد بعثه ذلك على التفكير فى موقف هذه الطبقة الثرية ، وهل من حق افرادها الاستئثار بالطيبات وان يعيش الفلاحون والصناع والتجار لخدمتهم والتصرف طوع أمرهم ؟ وأخذ يتساءل هل هذه الطبقة لازمة لتنتظم الأمور وتسير فى مجراها ؟ وبدت له أمور المجتمع معتلة الأوضاع وفى حاجة ماسة الى الاصلاح ، ولكنه لم ينظر اليها نظرة الثائر الحانق الذى يرغب فى تحطيمها والقضاء عليها ، فقد كانت حاسة الفكاهة قوية فى نفسه ، وكانت هذه النزعة تجتث من نفسه جذور الكراهة والحقد وكان يرى أن أفراد الطبقة المسيطرة خليقون بان يستخف بهم ويسخر منهم .**

الانسانية تأليف : هـ . ج . ولـز



بقلم رئيس التحرير

وكان ميله الطبيعى متجها الى العلم ،وأصيب فى السابعة من عمره بكسر فى ساقه واضطره ذلك الى ملازمة الفراش وأتاح له ذلك فرصة قضاء وقته فى القراءة ، وقد تنعم الأقدار بالباوى وان عظمت كـما يقول ابو تمام ، وولز نفسه يقول فى ذلك فى ترجمته الذاتية « الأرجح والأكثر احتمالا هو أننى اذا كنت اليوم حيا وقادرا على العمل بدلا من ان أكون محطم البنيان منهوك القوى مفصولا من عملى مساعدا بأحد الحوانيت وميتا فالفضل فى ذلك يرجع الى الكسر الذى أصاب ساقى » وغرس ذلك فى نفسه عادة القراءة ونماحبه للاطلاع واتسعت دائرة اهتماماته الثقافية ، وحينما كان يعمل فى احد المخازن فاجأه أحد المشرفين وهو متوار فى قبو ومشـــغول بكتابه أجابة عن بعض الأسئلة مثل ما هى المادة ؟ وما هو المكان ؟ ولحظ أحد المدرسين حسن فهمه وفرط ذكائه بعد أن ترك العمل فى الحانوت فساعده على ان يكون مدرسا مساعدا فى احدى المدارس الأولية فى حى ساسكس ، وكان حينذاك فى السابعة عشرة من عمره .

وانتقل الى لنـدن والتحق بكلية جنـوب كنسجتون للعلوم ، وكان من أساتذتها الأستاذ توماس هكسلى صاحب داروِن والعالم الذائع الصيت ، ولم يكن تدريسه مجرد تلقين مهنى للعلم وانما كان الى حد كبير تنظيما للتفكير ، وقد علمه هكسلى كراهة الأحكام المبتسرة والتقريرات التى لا تقوم على دراسة واختبار ، وهو ما يميز الرجل المتعلم حقامن الرجل الجاهل ، قال ولز فى ذلك « السنة التى قضيتها فى الدراسة تحت اشراف هكسلى كانت بغير شك أهم سنة فى تربيتى » وقد عرف فى الكلية طلبة وطالبات لم يلق مثلهم من قبل ، وأحدث ذلك تفاعلا فى تفكيره ، فكتب فصلا يعوزه الاتقان ذكر فيه أننا حينما ننسب فردا الى احدى الطبقات فاننا انما نفعل ذلك من قبيل التساهل فى التعبير لان الواقع ان كل انسان فذ .

وبعد أن ترك جنوب كنسجتون عمل حينا من الزمن مدرســا للعلم الطبيعى ، وأصيب بذات الرئة وتعرض لمرض السل ، فظل عاما أو عامين يعيش عيشة الكفاف مما تدره عليه بعض الفصول التى كان ينشرها فى الصحف والمجلات ، وتزوج ابنة عمه وكان قد احبها منذ طفولته ، ولم يوفق فى هذا الزواج ، فقد كان البون بينهما شاسعا من الناحية الثقافيـــة ، وفى أثناء ذلك لقى شابة صـــارت صـديقه له ، وأراد أن يقاسمها حياته فطلق زوجته وتزوج كاترين أوبنز ولم يوفق فى هذا الزواج التوفيق الذى كانت تناجيه به أخلاقه .

ولم يكن عجيبا أن يتجه هذا المدرس الذى يؤمن بالعلم ويكبره وقد ساءته الفوضى العائدة فى المجتمع الى الخوض فى معترك السياسة للعمل على اصلاح المجتمع بالطرائق العلمية ، ولكنه ظل من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٢ يكتب القصص والروايات التى أذاعت شهرته ، وكانت تغلب على قصصه النزعة العلمية مثل قصة « آلة الزمن » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجـل الخفى » وما الى ذلك من قصصه المعروفة ، وانتقل بعد ذلك الى مرحلة اخرى من مراحل حياته الأدبية فشرع فى تأليف روايات واقعية يذكر فيها تجارب حياته فى أسلوب تشوبه الدعابة والسخرية مثل « الحب ومستر لويزهام » وتاريخ المستر بوللى ومن اشـــهر هـــــذه الروايات رواية « ماكيــــافلى

الجـديد » ، كما أخـرج كتبـا أخرى عن تصوره للمجتمع الصالح وتكهناته عن المستقبل ، وقد وطدت هـذه الجهود الأدبية مكانته حتى صار أسمه يقرن باسم برناردشو والشاعر الروائى كبلنج حينما نشبت الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ .

وأكدت نزعته الأصلاحية واتجاهه الاشتراكى العلاقة بينه وبين الكثيرين من دعاة الاصلاح وزعماء التفكير الاشتراكى فى بريطانيا مثل سيدنى وب وزوجته بتريس وغيرهما من المصلحين الاشتراكيين ، وفى الجمعية الفابية — وهى مكونة من الجماعة التى كانت تدعو الى الاشتراكية غير الثورية — لقى ولز برنارد شو ورمزى ماكد ونالد وغيرهم من الانجليز ، **ولكن سرعان ما ادرك ان اتجاه تفكيره مختلف عن اتجاه تفكيرهم ، فقد كان الاشتراكيون الانجليز يرون انهم يمثلون طبقة تنزع الى الاستيلاء على ازمة الحكم ، اما ولز فكان يرى انه يريد أن يجمع مختلف الأحزاب والطبقات تحت لواء واحد لمحاربة الفوضى والاضطراب والغباء المستحكم ، بل كان يطمع فى جمع الامم جميعا وتوحيدها للقيام بهذه الرسالة** ، ولم يكن يضمر العداء للطبقة الحاكمة وان كان يجد أن بعض صفاتها تصلح لأن تكون موضوعا للفكاهة والسخرية ، وكان اهتمامه منصبا على الدعوة الى تنظيم المجتمع والعالم بأسره على أسس علمية وكان يمقت فكرة حرب الطبقات أشد المقت ، وقد بعثه ذلك على مهاجمة الجمعية الفابية واتهامها بالتقصير فى النهوض بواجباتها والخروج عليها ، وكان ما يهدف اليه ولز هو ايجاد جمهورية ملائمة لحاجات الانسان الحديث ومتمشية مع مستلزمات الحضارة العلمية الآلية الجديدة ، وهذه الجمهورية الولزية يحكمها ويدير أمورها جماعة من ذوى العقول الراجحة والدراية الواسعة ، وكان كلما تقدمت به السن يزداد اقتناعا بأن تحرير الانسان **متوقف على التنظيم الذى يقوم على اسس علمية وانه يحمل تبعة العمل على ايجاد هذا التنظيم الذى يكفل للانسانية الرخاء والخير ويجنبها خطر الابادة واضاعة الجهود البشرية عبثا .**

وكان نشوب الحرب الكبرى الأولى صدمة شديدة لرجل يكره القسوة ويمقت الفوضى ويحزنه ان تبدد الجهود فى غير جدوى مثل ولز ، وكان منظر الانسانية الشقية وهى تقف شجاعتها وعلمها على الهدم والتخريب فى حين ان الكثير من الاعمال التى يعود انجازها بالخير العميم على الناس جميعا ما تزال معطلة يحز فى نفس ولز ، ويثير همومه ، وقد عزى نفسه بالاعتقاد أنها حرب لانهاء الحرب، وأن قصف المدافع سيميل بالانسانية الى التماس السلام العالمى وكراهة الحرب والقضاء على أسبابها وبواعثها ، ولما وضعت الحرب اوزارها اعتقد ولز ان الفرصة سانحة لاعادة تنظيم العالم ، وان اذا لم يصب العالم بكارثة فان السنوات التالية ستكون اعظم السنوات فى تاريخ البشرية .

ولكن السنوات التى تلت الحرب الكبرى الأولى كانت مخيبة للظنون فعصبة الأمم التى راى فيها صورة مصغرة للجمهورية العالمية والعالم المنظم عكست آماله بعد أن ألهبت حماسته ، وصار يعتقد أنها عقبة فى طريق السلام العالمى وانها معطلة لكل اقتراح بناء ، وكما خاب أمله فى جنيف كذلك خاب أمله فى موسكو ، فقد ظن فى بادىء الأمر أنه سيرى فى روسيا طرازا جديدا من الرجال يعملون على بناء عالم جديد يلائم العالم المثالى الذى يتطلع اليه ، وقابل الزعيم لينين ، ويروى أن لينين قال غاضبا بعد حديثه مع ولز « أى بورجوازى ! أى رجل عامى ! » ، ولقى بعد ذلك استالين ، وأكد هذا اللقاء كذلك عدم التفاهم بين ولز وبين روسيا الحديثة .

وهذه التجارب مجتمعة جعلت ولز يطيل التفكير ويعجب لماذا تعذر تحقيق حلمه بالعالم المنظم على الأسس العلميـة الذى كان يبدو له شيئا معقولا ولازما لاسعاد البشرية واخراجهـا من الأزمات المتوالية واراحتها من الحروب المدمرة وأخذ فى أعقاب الحرب يبذل جهودا جبارة لمعالجة هذه المشكلة ، ورأى أنه لا مناص له من أن يعيد دراسة ماضى الانسانية فشرع فى كتابه موجز تاريخ العالم ، وقد تصدى لهذا العمل الجبار الذى أحجم عنه كبار أساتذة التاريخ المتخصصين لأنه رأى ضرورته ، وقد لقى هذا الكتاب رواجا عظيما فى بريطانيـا والولايات المتحدة بوجه خاص .

وقد أراد ولز أن يوضح فى هـذا الكتاب العوامل التى كانت من بواعث تقدم الانسانية وان يوضح كذلك الأشـياء التى كانت تعوق هـذا التقدم ، وذكر ولز أن كتـابه محاولة لعرض قصة الحياة والانسان فى سرد متصل الحلقات حسب ما وصلت اليـه معرفتنا فى العصر الحديث .

ويرى ولز أنه قبل قرنين لم يكن هناك تاريخ منفصل عن الحوليـات التى كتبها الكهنة ، وقد وقف الفصول الأولى من الكتاب على عملية التطور التى أسفرت عن ظهور الانسان فى العصر الحجرى الأخير ، ويرى ولز أن العقل وهو القوة المسيطرة فى التاريخ انبثق خلال عمليات التطور وأن العضوى الحى قد نشأ فى حمأة الأخاديد وشواطىء البحـار ، ومع تسليمه بأن التاريخ حركة مستمرة فانه لم يره تقدما يسير فى خط واحد منفرد ، فقد وصف عصوراً مختلفة لأقوام قضوا حياتهم مستقلين عن بعضهم البعض ، ولم يشغل باله بطرز الحضارة المختلفة ، وانما تتبع الحركات الحضارية فى الشعوب المختلفة والعصور المتباينة .

وعنده أن طبيعة الانسـان بوصفه انسانا واحدة فالتشابه فى الحضارات أهم وأبعد أثرا مما بينهـا من اختلافات ، والجماعات البشرية على تنوعها يمكن تقاربهـا وامتزاجها بعضها ببعض ، ولمـدة آلاف من السنين كانت هناك قوتان تعملان معا فى الوقت نفسه احداهما تعمل على أن تفرق الناس الى تنوعات محلية ، وقوة أخرى تعمل على اعادة مزج هـذه التنوعات المختلفة .

ووصف ولز الحضارة باعتبارها اقامة جماعة من الناس فى مسـاحة من الأرض يمتلكونها ويزرعونهـا ويبنون بها مساكنهم ، وينشئون مدنهم ، ويخضعون لنظام واحد من نظم الحكم ، وفى خلال سير التاريخ كان يحدث أن الجماعات المتبدية تهاجم الجماعات المستقرة المتحضرة ، وكان هذا الهجوم ينطوى على فوائد للبشرية ، وفى الجماعات المستقرة نشأ فن الكتابة والأفكار العلمية وفكرة العدالة ونظام الحكم العالمى ، وقد ظهرت هذه الأفكار بين الأقوام المختلفين فى عصور مختلفة .

وتاريخ البشر الى حد كبير هو تاريخ هـذه الأفكار الثـلاث ، العلم والعـدالة والحكومة العالمية ، وهو يرفض فكرة ان تاريخ الانسانية نتيجة للأحـوال والقوى الطبيعية فهو فى رأيه تاريخ افكار قبل كل شىء ، وكل ما يعمله الناس والأمم هو نتيجة التفاعل بين الدوافع الفريزية والأفكار التى تبثها فى رؤوس الناس الأحاديث والكتب والصحف واساتذة المدارس والجامعات ، وقد تعوق الضرورات الطبيعية والأوبئة والتغيرات الجوية سير التاريخ وتنحرف به عن مجراه ، ولكن جذوره الحية برغم ذلك هى الأفكار .

واختراع الطباعة جعل المشاركة فى المعرفة العامة ممكنة ، ولكن هذه المشاركة مع ذلك لم يمكن تحقيقها الا بعـد ان أمكن الحصول على مقـادير كبيرة من الورق ، وأهمية الورق فى التاريخ الحى لا تقدر ، ويقدر ولز الدور الذى لعبته الأديان فى تاريخ البشر ، وقـد اقترن بناء المعابد بظهور الحضارة ، وقد عنى بالأديان التى ظهرت خلال التاريخ ، ولكنه ابدى اهتماما أكثر بالمسيحية والاسلام لأنهما يتجهان اتجاها عالميا ، ويمهدان السبيل للوحدة العالمية ، ويقول ولز « ان تاريخ أوروبا من القرن الخامس الى القرن الرابع عشر الى حد كبير هو تاريخ اخفاق الفكرة الكبيرة فكرة الحـكومة العالميـة فى تحقيق نفسهـا » .

ويرى ولز أن المسـيحية والاسلام يجعلان الانسـان يابى العبودية ويشعرانه بتبعيتـه للعالم جميعه ، وانه ليس هناك خلاف بين العلم والدين برغم كثرة ما كتب فى هـذا الموضوع ، وما قررته الأديان عن طريق الوحى والبصيرة النفاذة كشـفه التاريخ واقره العلم ، وهو أن الانسـان من أصل واحـد وان البشر اخوة ، وان مصيرهم فى هذا الكوكب الصغير واحد .

وان العالم النفسى يؤيد الخطيب والواعظ فى أنه ليس هناك راحة ولا هدوء لقلب الانسان ولا سلامة لروحه وحسن اتزانه الا بعد أن يفقد الانسان حياته ليجدها ويتخلص من دوافع الطمع

والمنافســة والمخاوف التى تحصر مدى عطفه وتســتذل نفســه ، وهذا هو الدرس الذى نستخلصه من التاريخ .

وقد ظهر موجـز تاريخ العالم فى أعقاب الحرب الكبرى الأولى ، وكان ولز لا يزال محتفظا بتفاؤله وان يكن قد ساورته بعض الشكوك فى هــذا التفاؤل ، فقد كان يرى أننا قد روضنا الوحوش ، وتقدمنا فى العلم تقدما باهرا ، ولكننا لم نستطع بعــد أن نروض أنفســنا ونكبح جماحنا ، وقد أشار فى كتابه الى اهمية الآداب ، والى ان المعرفة لابد لها ان تظاهرها قوة ادبية ، والتاريخ لا يزال بحاجة الى أن يكون تاريخ الكرامة الانسانية .

واستخلص ولز من دراسته للتاريخ ان لابد للانسان من تربية علميــة شاملة تتناول جميع الأفراد ومختلف نواحى الحياة ، وأعلن أن تاريخ البشر مباراة بين التربية والنكبة ، وكان أمله أن التربيــة سيكون لها السبق لتجنب الانســان النكبة ، وقد عاش ولز فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ودعا فى كتبه ورواياته الى فكرة الوحدة العالمية والتربية الشاملة ، ولكنه كان أقرب الى التشاؤم منه الى التفاؤل ، ولكن ايمانه بالتقدم الذى تضمنه كتابه عن موجز التــاريخ لا يزال يبعث الأمل فى نفوس قرائه ويوحى اليهم الثقة بالانسانية وتاريخها .

ويقول برتراند رسل فى ختام حديثه عن ولز فى كتابه القيم صور من الذاكرة (١) .

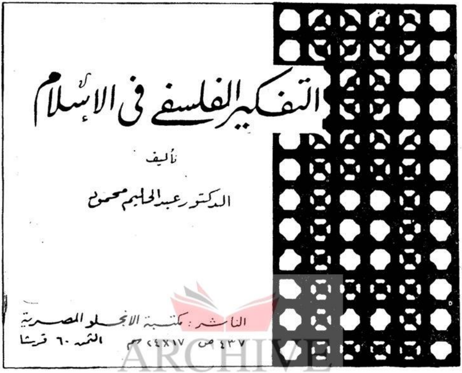
«أهميــة ولز الأولى هى أنه محرر للفكر والخيال ، فقد كانت له مقدرة على تكوين صور مجتمعات ممكنة . جذابة وغير جذابة ، تشجع الصغار على تصــور ممكنات ، ما كانت لولاه لتدور باخلادهم ، وكان يستحدث هذه الصور فى بعض الأحيان بطريقة غاية فى التوضيح .

(١) راجع صــفحة ٩٢ من ترجمة الأستاذ احمــد ابراهيم الشريف لكتاب « صــور من الذاكرة ومقالات أخرى » لبرتراند رسل .

فان قصته « بلد العميان » تجديد متشائم بلغــة العصر لأسطورة الكهف عند أفلاطون ، وطوبياته المتعــددة ، وان كان ينقصها صمود التركيب انما تهـدف الى انبعاث تيار فكرى قد يؤتى اكلا مفيدا ، وهو دائما متمسك بالعقل متجنب صــور الطيرة المختلفة التى يقع فيها العقل الحــديث ، مؤمن بالمنهج العلمى ايمانا سليما حافزا ، وتفاؤله فى جملتــه وان حالت ظروف العــالم دون التمسك به ربما يؤدى الى نتائج أطيب بكثير مما يؤدى اليه التشاؤم القعيد الذى أخذ يسيطر على الناس ، واظن على الرغم من بعض التحفظات ان المرء ينبغى أن ينظر الى ولز كقوة دافعة كبيرة نحو تفكير سليم بناء سواء فى نظم المجتمع أو فى علاقات الأفراد ، وارجو أن يكون له خلفاء وان كنت لا أرى منهم فى الوقت الحاضر أحدا » .

وقد قام منذ سنوات بترجمة هذا الكتاب الى اللغــة العربية الأستاذ عبد العزير توفيق جاويد ، وهو من أقـدر المترجمين المعاصرين ، وقد مارس الترجمــة طويلا وعرف صــعابها ومزالقها ونقل طائفة من الكتب القيمة الى اللغة العربيــة أذكر منها كتاب المستشرق العــلامة جوستاف جرونيباوم « حضارة الاسلام » ممــا يجعل الانســـان يقرأ فى ثقة واطمئنان ترجمته لموجز تاريخ العالم الذى آثر أن يسميه « معالم تاريخ الانسانية » وتمتاز هذه الترجمة بالوضوح وســهولة الأسلوب مع تحرى الدقة والأمانة ، وقد ظهرت أخيرا الطبعة الثانية للمجلد الرابع الذى يبدأ من سنة ١٦٠٠ ميلادية ، وما من شك فى أنه كتاب من الكتب التى تصلح لأن تكون أساسا للثقافة والتربية العلمية والأخلاقية فقد عرض فيه ولز تاريخ العــالم عرضــا قويا مؤثرا ، وما بذل الأستاذ جاويد من جهـد فى نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية جدير بالتقدير ، ومن حق هذه الترجمة أن تلقى العناية والاقبال من قراء اللغــة العربية على اختلاف مستوياتهم الثقافية .

علي أدهم



الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أحد أساتذة الفلسفة والتصوف الاسلامى الذين أسهموا بنصيب كبير فى دراسة ناحية هامة من نواحى ثقافتنا الاسلامية ، على أساس من الدراسة التقليدية المتينة فى الأزهر ، ومن الدراسة الفلسفية الحديثة فى جامعة باريس ، وقد يكون فى حديثى عنه ما يوهم نوعا من الاطراء بسبب زمالتنا وصداقتنا القديمتين . الله يعلم ، وسيعلم الناس ، اننى لئن وصفته بأنه من خيرة الدارسين فذلك لأننى أعتقد صدق ذلك بعد قراءة لانتاجه ، وزمالة له فى تخصصه ، وهو يعلم أيضا ، وقد لا يعلم الناس ، اننا رغم زمالتنا وصداقتنا القويتين نختلف قليلا فى الاتجاه الفكرى العام . لكن هذا الاختلاف لم يمنع من اشتراكنا فى اصدار « سلسلة الدراسات الفلسفية والأخلاقية » منذ أكثر من عشر سنوات حيث نشر فيها الدكتور عبد الحليم محمود عددا لا بأس به من الكتب ، « ككتاب المنقذ من الضلال » ومقدمته الممتعة فى التصوف ، وكتاب « فلسفة ابن طفيل » ورسالته «حى بن يقظان» وكتاب «التصوف عند ابن سينا» والطبعة الأولى لكتاب « التفكير الفلسفى فى الاسلام » بجزئيه منفصلين ، وهو الكتاب الذى جمعه فى مجلد واحد ، والذى نعرض له هنا بالتحليل والدراسة وبالنقد بين حين وحين ، كما جرت عادتنا فيما بيننا .

ان هذا الكتاب ثمرة مجهود ضخم ودأب أعرفه حق المعرفة ، وهو يعرض عرضا وافيا فى معظم الأحيان ، ومتسرعا فى قليل منها لأهم المشكلات الفلسفية الاسلامية ، وقد أراد الدكتور عبد الحليم أن يحتفظ للكتاب بمنهجه الذى سبق أن اتبعه فى الطبعة الأولى اذ يجمع الكتاب كما قلنا بين جزءين ويقع فى نحو ٤٥٠ صفحة .

ويحتوى الجزء الأول منهما على سبعة فصول خصص الفصل الأول منهما للبيئة الفكرية التى

نشأ فيها الاسلام ، فتكلم عن الحنفاء والحكمة والحماسة الدينية والخلقية ، وصحح فيه الفكرة العامة عن العرب . أما الفصل الثانى ، فقد خصصه للقرآن ، فوصف هذا الكتاب العزيز أجمل وصف ، ثم انتقل الى ما لقيه الرسول عليه الصلاة والسلام من مشقة فى تبليغ الدعوة ، وبين القيمة الذاتية للدعوة الاسلامية ، والوسائل التى اصطنعها الرسول الكريم فى هداية العرب ، ثم صور كيف عورضت هذه الدعوة ، وكيف مهدت ، فى عمق لتحديد فكرة الألوهية ، وتأكيد ضرورة البعث ، وفى أثناء ذلك فصل المؤلف القول فى موقف القرآن من معتقدات العرب ومن المسيحية واليهودية . وفى الفصل الثالث عنى الدكتور عبد الحليم محمود بالحديث عن الفرق والأحزاب الدينية ، وعالج حديث افتراق المسلمين الى عدد معلوم من الفرق حسبما جاء به حديث ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يشأ أن يترك هذا الأمر دون أن يوضح لنا رأيه ورأى ابن خلدون فى تقسيم الفرق .

أما الفصل الرابع ، فهو خاص بمذهب السلف ، ومدى استخدام البحث النظرى فى عهد الرسول ، وموقف الصحابة من البحث فى الدين ، وموقف الأئمة من علم الكلام أى العلم الخاص بالبرهنة على العقائد الاسلامية . كما عرض لموقف السلف من مشكلة القضاء والقدر ، ومن مشكلة الأحاديث التى توهم تشبيه الخالق بالمخلوق ، ولم يشأ أن يختم هذا الفصل دون أن يتعرض لراى بعض الغربيين فى ابحاث ما وراء الطبيعة .

ويشبه أن يكون الفصل الخامس امتدادا لفكرة الفصل الرابع . لكن آثر الدكتور عبد الحليم أن يفصله لسبب منهجى فى عرض آرائه . ذلك ان هذا الفصل قد خصص للتفكير فى عهد الصحابة ، ولما درجوا عليه من التحرج عن التفكير فى ذات الله ، ومن انصرافهم الى التفكير فى مسائل الفقه . لكنه لم يغفل ذكر بعض مظاهر الاختلاف بين الصحابة ..

أما الفصل السادس ، فربما كان اكثر قربا من دراسة بدايات التفكير الفلسفى الاسلامى من الفصول السابقة ، لأنه يتكلم عن أصل الشيعة وعن رأى الدكتور عبد الحليم محمود فى هذا الأصل ، وهذا شيء قد نخالفه فيه . ثم أخذ يعالج الفرق الشيعية معالجة سريعة ، من امامية وزيدية وانتقل الى الخوارج والمرجئة وختم الفصل بالحديث عن أبى حنيفة وأصحابه ، وقد يبدو اننا مسرعون فى هذا العرض ، لكنا نعد بأننا سنتوقف مع المؤلف فى هذا الفصل وفى الفصول التى تليه اى فى الفصل السابع من هذا الجزء الأول وفى فصول الجزء الثانى كلها ، ويكفى أن نشير اشارة عاجلة الى محتويات الفصل السابع من الجزء الأول قبل أن نحاله موضوعيا ونبين وجهة نظر المؤلف ووجهة نظرنا أيضا ، فهذا الفصل خاص بمعالجة مشكلة الجبر والاختيار عند عيلان الدمشقى ، والجعد بن درهم وجهم بن صفوان والحسن البصرى .

اما فيما يتعلق بالجزء الثانى فانى أرى أن نعالجه اجمالا وتفصيلا بعد ان ننتهى من تحليل الجزء الأول تفصيلا ومن بيان وجهة نظرنا الخاصة فيه وقد يكون ذلك فى مقال آخر .

ان أول ما يلفت النظر فى مقدمة الكتاب ان الدكتور عبد الحليم محمود يحاول ان يقنعنا ان التفكير الاسلامى لم يتدرج ولم ينم مع الزمن ، وانما نشأ كاملا وهذه القضية صادقة اذا اتجه الى القرآن وحده ، أما اذا أراد التفكير الاسلامى جملة . ولا أظنه يقصده . فذلك شيء لا يقره عليه أحد . وحتى فيما يتعلق بالقرآن نفسه فسنرى أن التفكير حوله قد نما وتطور فى اتجاهين معروفين هما اتجاه أهل الظاهر وأهل التاويل .

وهذا الباب الأخير ينتهى بنا الى متاهات لا نهاية لها ، تبدأ من التأويل العقلى المعتدل عند المعتزلة ، ولا تكاد تنتهى عند الفرق الغالية ، ولا سيما عند الباطنية وبعض من تأثر بهم من المتصوفة من أصحاب النزعة الفلسفية من أمثال الحلاج والسهروردى المقتول وابن عربى .

ويحرص الدكتور عبد الحليم أن يؤكد لنا أنه يكتب فى موضوع التفكير الفلسفى وهو مسلم معتز باسلامه ، وانه يتخذ الاسلام مقياسا للحكم على الآراء ، اذا لم يجد ارباب النزعة العلمية الحديثة مقياسا للحكم . لكن الغريب أيضا انه يؤكد لنا آخرا أنه يستطيع أن يكون فى نفس هذا الموضوع

معتزا باسلامه اعتزاز الأستاذ الدكتور عبد الحكيم محمود ، لكنه قد ينتهى مع ذلك الى الاختلاف معه فى كثير من المسائل .

ولنضرب أمثلة عابرة تشـــهد بأن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية كما يقولون فالدكتور عبد الحليم يخبرنا أنه يجارى رينان ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ مصطفى عبد الرازق فى أن الحركة الفلسفية الحقيقية فى الاسلام ينبغى أن تلتمس فى مذاهب المتكلمين ثم يدافع عن التصوف ويفصلـــه عن الفلســـفة على عكس ما يرى المستشرقون . ويأذن لى الدكتور عبد الحليم ان اخالفه واخالفهم . فقد يتبين لى .

أن مدارس علم الكلام قد ناقشت مشكلات لفظية (١) وأن التصوف كان فى معظم مدارسه اتجاها باطنيا وفلسفيا بعيدا عن روح الاسلام (٢) .

أقول ان هذا يصور ناحية من نواحى الاختلاف فى الرأى ، وليس هذا الاختلاف الا حافزا لشبابنا المختصين فى الدراسات الفلسفية والصوفية على أن يتعمقوا فى دراسة الاتجاهات الفكرية والفلسفية الاسلامية على ضوء وجهات نظر مختلفة فقد مضى عهد التقليد . .

ويلاحظ على الفصل الأول من الكتاب ، وهو كما قلت خاص بالجو الذى نشأ فيه الاسلام ، ان الدكتور عبد الحليم عنى بالاعتماد على مصادر قديمة وحديثـة كالأغانى والأدب الجاهلى لطه حسين وسيرة ابن هشام ، وفجر الاسلام للدكتور احمد أمين والملل والنحل للشهرستانى ، فأورد أشعارا كثيرة لزيد بن عمرو بن نفيل ، وان كانت بعض القصائد التى اوردها يبدو فيها أنها وضعت فى عصر متأخر كما ينم عنه هذان البيتان :

ولكن اعبـد الرحمن ربى
ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها
متى ما تحفظوها لا يتوروا

ومن الشـعراء الذين اورد قصائدهم ذات النزعة الحنيفيـــة امية بن أبى الصلت . **ومن الطريف أن ثقافة اميـــة بن أبى الصلت وآراءه الخاصة بالسحر تكاد توحى بانه كان صـاحب ثقـافة غنوصـية ونريد بالغنوص** gnose **التعاليم السرية الشرقية القديمة التى تجمع بين آراء من المسـيحية واليهـودية وبعض آثار من الديانة الفارســـية القـديمة ومن الطلسمات والسحر وكيمياء الشعوذة .**

ويولى الدكتور أهمية خاصة لنصيب حكماء العرب فى تكوين البيئة الروحية للعرب ، ويشير الى أشـهر حـكمائهم كعامر بن الظرب وأكثم ابن صيفى بن رباح وقس بن ساعدة الأيادى . ثم يعرض للحمس الذين يذهبون مذهب التـأله والتزهد ، وهم يشبهون عندى الصوفية الزنادقة فى العصر العباسى الأول . ومن الطريف أنهم تركوا الوقوف على عرفة مع اقرارهم بانه من مناسك الحج . وقد سار على مثالهم بعض متصـوفة القرن الثالث الهجرى الذين نادوا باسقاط فريضة الحج ومناسكها . وأباحوا اقامة ما يشبه الكعبة فى دورهم بدلا من الذهاب الى مكة ، وقد قيل أنهم كانوا يطوفون حول البيت عراة . وفيما بعد نسب الى صوفية الزندقة أنهم ارتضوا هذا المسلك فى الصـورة المصغرة التى كانوا يقيمونها فى دورهم الكعبة ، ويستطرد الدكتور الى قصة ابرهة ، ثم ينتقل الى الأديان فى جزيرة العرب ، ويعطينا فكرة هامة كنا نود أن يتعمق فيها وهى أن الزندقة كانت فى قريش وانهم أخذوها عن الحيرة ، فان هـذه الفكرة ربما فسرت لنا هذا التوافق العجيب الذى أومأت اليـه منذ قليل عند المقارنة بين الحمس والمتصوفة الزنادقة فى الدولة العباسية ، وايا كان

(١) أنظر كتاب مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشـد ، ومقدمتى له فى نقد مدارس علم الكلام (الأنجلو المصرية ١٩٦٤) .

(٢) نقوم الآن باعـداد بحث عن التصوف عند الحلاج وصلته بالاسماعيلية .

الأمر فان هذا يعد موضوعا جديرا بالبحث ولعله يستهوى أحد الباحثين فى المجال الفلسفى والصوفى .

ويحاول الدكتور عبد الحليم أن يصحح فكرتنا عن عرب الجاهلية وأن يزيل بعض الشبهات التى علقت بالأذهان عن فتورهم الدينى وعبادتهم للأصنام . ويورد هنا للشهرستانى نصا يقول فيه ان الأصنام لم تكن عندهم مجرد قطع من الحجر وانما اتخذوها على شكل « الهياكل العلوية » فكانوا يعبدونها باعتبارها رمزا للهياكل العلوية . وربما كان يجدر بالدكتور عبد الحليم محمود أن يوقفنا على مصدر هذه الفكرة وهى فى ظننا فكرة نازحة من العراق القديم أى من مذهب الصابئة .

وهو يعتمد فى دفاعه عن عرب الجاهلية على ما قاله جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ، وعلى ما قاله المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق . « مما فى الشعر الجاهلى من مقالة سامية وحكمة صادقة » ، وعلى ما قاله الدكتور طه حسين من أن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية . وينتهى الدكتور عبد الحليم بأن يرتضى رأى المرحوم الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق القائل بأن العرب فى الجاهلية لم يكونوا بدائيين من الناحية الفكرية الى الدرجة التى يتصورها بعض الناس .

يدل على ذلك ما عرف من اديانهم وما روى من آثارهم الأدبية . ويخيل الى أن رأى الأستاذ مصطفى عبد الرازق يدمغ الجاهلية اكثر مما يحاول التخفيف من الحكم القاسى عليها .

أما الفصل الثانى الخاص بالقرآن فيمكن أن نصفه بالجودة وهو على ايجازه وكثرة الاستشهاد فيه بالآيات القرآنية ينم عن طابع فلسفى أصيل عند الدكتور عبد الحليم محمود . اذ هو يعرف كيف يربط القرآن بالواقع ويحسن الاستشهاد له . وهو يعرض فى ايجاز واضح مقنع سبب عداوة العرب للدين الجديد ، ويكشف عن سبب مقاومة اليهود والنصارى فى الجزيرة له ، وهو يحسن عرض القيم الذاتية للدعوة الاسلامية وخلو نظامها الاقتصادى من الأنانية واتباعه للمنطق والعقل وهذه القيم انما جاءت تصحيحا للمسيحية

كما تمتاز تلك الدعوة عن اليهودية بما فيها من بساطة ونضرة وتنزيه لله ورسله وانبيائه ، ثم هى رجوع باليهودية الى الحق قبل أن يحرفها ذووها . واذا كانت هذه الأفكار تقليدية ومتداولة الا أن عدم الاسراف فى عرضها يخلع عليها طابعا من الوضوح والدقة ، ويجعلها اكثر اقناعا .

وشىء غريب يجب ان نلفت النظر اليه . اذ أننا نرى الدكتور عبد الحليم متشبثا بتمجيد العقل ، مع أننا نعرف أنه من اشد الدارسين المعاصرين حماسة للتصوف وذلك عندما يكشف عن الطابع العقلى المنطقى المعجز الذى يحتوى عليه القرآن فى مجادلته للوثنيين والنصارى واليهود ، وفى اثبات الرسالة بادلة عقلية بديهية تعتمد على الحس والعقل معا .

وهنا يجد الدكتور عبد الحليم فى الآيات القرآنية المفحمة لمن عارض القرآن من العرب . وهو يشير فى وضوح الى الأدلة البديهية التى تعتمد على فكرة السببية والعناية الالهية ، وهما أفضل البراهين الفلسفية والعقلية على اثبات وجود الله ، كذلك عرض للآيات التى تقرر الوحدانية ، ورأيناه يأتى بآيات عديدة لم يفطن اليها علماء الكلام التقليديون ، كذلك يمكن ان نطرى الدكتور عبد الحليم على حسن ايراده للآيات القرآنية الخاصة بالعلم الالهى والصفات الأخرى . ويمكن تكرار هذا الأطراء فى بقية المسائل الكبرى التى جاءت بها العقيدة الاسلامية ، كفكرة الخلق من العدم وفى غير زمن ، وأحوال البعث ، ويوم القيامة ، وقد وضح لنا موقف الاسلام من العقائد الوثنية واليهودية والمسيحية ، وتوقف بعض الوقت أمام قصة مريم أم المسيح عليه السلام ، واورد الآيات التى تناقش عقيدة التثليث عند النصارى ، وقد كان يحسن بالدكتور أن يعتمد على ثقافته الأوروبية ليشير الى تطور العقائد المسيحية ، وتطرق الآراء الغنوصية اليها (١) .

(١) عرض الأستاذ الدكتور على سامى النشار لهذه النقطة تفصيلا فى كتابه نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام الجزء الأول والمراد بالغنوصية المعرفة الاشراقية التى تنكر الوحى وهى تجمع بين شتات آراء وثنية وفلسفية قديمة .

أما تفصيل الفصل الثالث الذى يعالج فيه الدكتور الفرق والأحزاب الدينية فيمكن عرضه بايجاز عندما يقول انه بدأه بالحديث الذى روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة والباقون هلكى . قيل ومن الناجية ؟ قال أهل السنة والجماعة . قيل وما السنة والجماعة ؟ قال . ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . كذلك أشار الى افتتان مؤرخى الفرق الاسلامية فى تفسيره ، وتعسفهم فى تعداد الفرق ، وتعصب كل فرقة لنفسها من شيعة وسنة .

ويورد الدكتور ملاحظة نشكره عليها ، عندما يقول : « أرأيت كيف يتخذ الاختلاف والاغراق فى الابتعاد عن الآخرين أساسا للنجاة ، ولو اتبعنا هذا الأساس لكان الاغراق فى الالحاد أساسا للنجاة ، بل لكان التخريف أو تخيلات المجانين أكثر قربا للنجاة لأنها أكثر ابتعادا عن آراء الآخرين » وكان يسعدنا ان يعطينا رأيه بهذه المناسبة فى شطحات الصوفية .

ومن قبل أثار هذا الحديث اهتمام الامام محمد عبده . وقد حرص الدكتور عبد الحليم على ايراد كلام الامام كاملا ، وهو يتلخص فى أن الامام يعرض نماذج من آراء الفرق ، ويبين سندها من القرآن سواء كان ذلك لدى الشيعة أو الفلاسفة أو الصوفية . ومن الغريب أنه يعتمد على آية قرآنية ليقول لنا ان فكرة وحدة الوجود مأخوذة من القرآن ، ويربط هذه الفكرة التى نعتقد نحن أنها غير اسلامية بحديث نرجو أن يتحقق أصحاب رواية الحديث من صحة نسبته الى الرسول وهو قوله : « لو سقطت ابرة من السماء على الأرض لسقطت على الله » !! (١)

ومن العجيب فى نظرنا نحن على الأقل أن يبرر الشيخ محمد عبده نظرية الفيض التدريجى مع اننا نعلم أنها من تراث أفلوطين . وبالجملة نجد الامام عبده يبرر وجود جميع الفرق . ويعلق الامام هنا فيقول : « وليس لنا الآن غرض يتعلق بتحقيق ما هو الحق فى الواقع بل ذلك يأتى فى الكتاب . . . والوقوف على حقيقة الحق فى ذلك يكون من فضل الله تعالى وتوفيقه فان للناظر أن يقول . يجوز أن تكون الفرق الناجية الواقفة على ما كان عليه النبى وأصحابه قد جاءت وانقرضت وأن الباقى الآن من غير الناجية أو أن الفرق المرادة لصاحب الشريعة لم تبلغ الآن العدد ، وأن الناجية الى الآن ما وجدت وستوجد ، أو أن جميع هذه الفرق ناجية حيث أن الكل مطابق لما كان عليه النبى وأصحابه من الأصول المعلومة لنا عنهم كالألوهية والنبوة والمعاد . وما وقع فيه الخلاف فانه لم يكن يعلم عنهم علم اليقين والا لما وقع فيه اختلاف ، وأن بقية الفرق ستوجد من بعد أو وجد منها بعض لم يعلم أو علم ، كمن يدعى ألوهية على مثلا كفرقة الضريه » وأمام هذه الاحتمالات الجدلية المألوفة عند القدماء والتى تعقد المشكلات بدلا من أن تجد لها حلا ، يحار المرء فى الاختيار بين أحدها .



لكن مما يسر أن الامام محمد عبده يجد لنا احتمالا آخر عندما يقول « ومما يسرنى ما جاء فى حديث آخر . أن الهالك منهم واحدة . ثم يعرج الامام محمد عبده على رأى الغزالى الذى عرضه فى كتاب « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » فيرتضيه لنفسه أيضا فى كل تفاصيله ؛ ويقول ان كل من يعترف بأصول الاسلام من ايمان بوجود الله ورسالة نبيه والبعث فهو من الناجين . ولا ينسى الامام محمد عبده أن يشير الى ما أشار اليه الامام الغزالى من قبل من الاختلاف الداخلى فى كل فرقة وهو يسلك

---

(١) اعتمد الحلاج على هذا الحديث ليقرر أن شهادة التوحيد لدى العامة كفر — انظر أخبار الحلاج لماسينيون ط ١٩٣٦ .

مسلكه فى أن الحق الذى يرشد اليه الشرع والعقل هو أن يذهب الناظر المتدين الى اقامة البرهان على العقيدة ، وأن يقنع بالظاهر اذا أرضاه ، غير ان التأويل مستحب للرد على الجاحدين وفى نهاية الأمر يمد الشيخ محمد عبده يده للمتصوفة ، ويتكلم عن مراتب التصوف ، ونور العارفين . ويعلق الدكتور عبد الحليم على هذا الرأى الذى أفاض فيه الامام محمد عبده كل الافاضة وأوجزناه نحن كل الايجاز فيقول . وهو رأى فيه من سعة الأفق ، ورحابة الصدر ما يمكن أن يكون نواة للتسامح العام بين أهل القبلة الاسلامية .

لكن هذا الاعجاب لا يمنع الدكتور من أن يعرض لنا رأيه فى قيمة الحديث بانه يميل الى التسامح ، وهذا شيء يحمد له . ومع ذلك يعترف لنا بشيء جال فى صدرنا منذ أول الأمر ، وهو الشك فى صدق هذا الحديث ، فان هذا الحديث الذى ذكره الشهرستانى وتقيد به « وربما كان ذلك ليبرر منهجه فى الكتابة عن الفرق » وأورده البغدادى فى الفرق بين الفرق « وربما كان ذلك لنفس الدافع الذى دعا الشهرستانى للتمسك بالحديث » .

نقول ان هذا الحديث لم يرد فى واحد من الصحيحين . البخارى ومسلم . كما يعترف الدكتور عبد الحليم . كما أن ابن حزم والرازى لم يتقيدا به ، ومما يزيد الشك فى صحة نسبة هذا الحديث الى الرسول أنه روى برواية مناقضة تماما وهى : « ستفترق امتى على نيف وسبعين فرقة كلها فى الجنة الا واحدة » وفى رواية أخرى . « الهالك منها واحدة » وأيا كان الأمر . فانا نجد فى اختلاف روايات هذا الحديث مثالا جيدا للجهود العظيمة التى انفقت فى غير ما يجدى ، واعتقد انه من الأفضل أن ننحو نحوا آخر فى الدراسة أكثر جدية من ذلك .

وقد حاول الدكتور محاولة مشكورة لكنها مبسطة ، فى تقسيم الفرق ففرق بين ما يسميه أحزابا دينية ، وفرقا دينية ، فهو يدخل الشيعة والخوارج فى الأحزاب ، ويدخل المشبهة والمعتزلة والأشاعرة ومدرسة ابن تيميه فى الفرق ، وقد لا نوافق الدكتور على رأيه فى أن الشيعة ليست فرقة ، ولو انه عرض لعقائد الشيعة لوجد فروقا حاسمة ، قد يكون أصلها سياسيا لكن غلب عليه الطابع الدينى ، ويجب ألا نبسط الأمور أكثر مما ينبغى . فنقول ان الاختلاف فى الامامة ليس اختلافا فى أصول الدين . فان هذا قد يصدق من وجهة نظر اهل السنة . لكنه ليس رأى الشيعة .

أما عن المرجئة فيخبرنا الدكتور ، وقد يكون محقا . فيقول : انها ليست فرقة ولا حزبا بل هى نزعة . وهو يصف الجهمية بأنها مذهب مضطرب لانها معطلة وجبرية فى آن واحد وهو محق فى ذلك كل الحق .

ويلخص الدكتور رأيه فى تقسيم الفرق فيرجعها الى أربع هى :

المشبهة والمعتزلة والأشاعرة وابن تيميه ، ويقول ان منهج المعتزلة هو المنهج العقلى وهذا تبسيط للأمور أكثر مما ينبغى . فقد رأينا عن تجربة أن المعتزلة أكثر استشهادا بالنصوص من الأشاعرة أما المشبهة فتلتزم النص ، فى حين أن الأشاعرة وابن تيميه يجمعان بين العقل والنص .

ثم عاد مرة أخرى يؤكد لنا أن هناك فرقة واحدة ناجية وهى « السلف » لأنهم واسطة العقد ودرة القلادة مع أنه قال منذ قليل انه كثير الاعجاب برأى الامام محمد عبده .

وأيا كان الأمر فانا نحمد له دفاعه عن ابن تيميه وتبرئته اياه من التهمة التى ألصقت به من انه دسيسة على الاسلام .

ويبدو الدكتور غير متسامح مع المشبهة فيقول : « ان استعدادهم استعداد الدهماء لأنهم عمال أو صناع .. ولكن انحراف الأمور والاضطراب العام فى نظام المجتمعات جعلهم فى

عداد العلماء وحملة الأقلام » ثم يرق قلبه لهم فيصفهم بالاخلاص لأنهم لا يبطنون كفرا ويظهرون ايمانا . لكنه يعود فيقسو عليهم مرة أخرى ، وربما كان ذلك لنزعة صوفية نعرفها عن الدكتور فهو يقول : « ولا يمكنك أن تطلب من طبيعة الدهماء الغليظة أن تتنسم الروحانية في صفائها ، وأن تستشعر الحق ناصعا وضاء . »

ويعذرني الدكتور عبد الحليم ان كشفت عن نقطة خلاف عميقة بيننا . وهي انني أكثر ميلا الى أن طباع من يسميهم الدهماء وضعفاء الاستعداد للبحث والنظر ربما كانت أكثر روحانية من أهل النظر ، وممن يطلق عليهم اسم الخواص ، أو خواص الخواص . وأريد أن أكون اكثر وضوحا وادبا عندما انعى على الصوفية استخفافهم بالعامة .

وربما كانت كلمة ابن رشد تحتوى على شيء من الحق الجدير بالدراسة عندما قال بنسبة خفية بين الصوفية والباطنية . فان الباطنية يحقرون عامة المسلمين ويصفونهم بأنهم من الحمير او البهائم . وأيا كان الأمر فسنعود الى هذا الموضوع بتفصيل في بحث آخر . .

وقد اعتمد الأستاذ الدكتور اعتمادا كبيرا في فصله الخاص بمذهب السلف على كتابات الغزالي ولا سيما كتابه « الجام العوام عن علم الكلام » وأشار الى كراهية الرسول عليه السلام للجدل في العقائد ، وبخاصة في عقيدة القضاء والقدر ، كذلك بين موقف الصحابة واعترافهم بأن الله اكمل دينه ، وأتم نعمته على المسلمين ، وان القرآن قد وضح العقائدعلى نحو لا يحتاج الى عون أو مزيد ، وهكذا اقتصروا على الأدلة التى جاء بها القرآن الكريم لاثبات وجود الله والرسالة والبعث ، فكانت أدلتهم على وجود الله تنحصر في دلالتى الاختراع والعناية الالهية اللتين وضحهما ابن رشد على أكمل نحو في كتابه « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » . وقد اكتفى الدكتور في حديثه عن هذين الدليلين بما جاء في كتاب « جواهر القرآن » للامام الغزالي ونلاحظ ملاحظة شكلية وعابرة أن الدكتور استخدم نصوصا كثيرة من كتاب « الجام العوام عن علم الكلام » ولا سيما في اثبات البعث وفي نقد علم الكلام ، وما جد فيه من مشاكل مثل مشكلة خلق القرآن . كذلك عرض لموقف السلف من مشكلة القدر ، وبيان أن ايمانهم بالقدر لم يكن معناه الاستسلام لله مع العمل قدر الطاقة مشيرا الى قصة عمر والطاعون وهى قصة معروفة مشهورة .

أما فيما يتعلق بموقف السلف من الأحاديث التى توهم وجود شبه بين الخالق والمخلوق كالأحاديث الخاصة باليد والقدم والنزول والاستواء على العرش ، فقد عرض لموقف السلف والأشعرية وابن تيميه ومذهب المشبهة فيها ، وهو يشير الى الجدل بين الأشعرى وابن تيميه ثم يؤجل الحكم على أيهما يمثل مذهب السلف .

اما مذهب السلف فقد اعتمد فيه اعتمادا تاما على ما قرره الغزالي مستخدما الكثير من نصوص « الجام العوام » وأفكاره ، فتكلم عن واجب المؤمن من تقديس الله وتنزيهه عن صفات المخلوقين ، كما يجب عليه الايمان والتصديق والاعتراف بالعجز . وعدم التصرف في الألفاظ ، وامساك اللسان عن السؤال . كما تعرض لأسباب التوقف في التفسير ، والتأويل ، ثم بدا يقرر على غرار الغزالي ، أن الحق هو مذهب السلف .

وأخيرا يختتم هذا الفصل ببيان راى بعض الغربيين في أبحاث ما وراء الطبيعة ، مستشهدا باقوال هؤلاء الذين يتساءلون هل علم ما وراء الطبيعة سينال غرضه يوما ما ، أم سيظل صاغرا متسولا أمام ساحة تلك القوة الخفية الكبرى لا يستطيع أن يطأ حماها ، كما قال الغزالي من قبل : « أما حظيرة القدس فأرفع من أن تطأها أقدام الناظرين أو العارفين » ومن العجيب أن يستشهد الدكتور عبد الحليم ببعض أقوال فولتير ، مع أننا نعلم انه كان باعث موجة الالحاد في القرن الثامن عشر . وانما يستشهد الدكتور بمثل هذه الأقوال لكى يبرر فكرة يشاركه فيها الأستاذ الدكتور على سامى النشار وهى افلاس الميتافيزيقا وان كان الدكتور النشار يتحدث من جانبه عن ميتافيزيقا القرآن .

وقد يغفر لى الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أن أطلب اليه أن يستبعد الفصل الخامس

من كتابه فى الطبعة القادمة . اذ أرى أنه فصل مقحم على كتــابه ، وخاصة أنه لا يعالج مسائل فلسفية ولأن ما جاء فيه من آراء دينية قد سبق عرضه فى فصول سابقة كمسألة التفكير فى ذات الله ، وسر القدر ، أما المسائل الأخرى فلها موضع آخر ، وهو كتب الفقه ، كالاختلاف فى الفروع كمسألة الميراث التى عرضت على سيدنا عمر ، والتى تسمى بالمسـألة المشتركة وكمســألة الصدقات ، فمثل هذه المسائل ليست من صلب التفكير الفلسفى فى الاسلام . حقا ان رسالة عمر فى توجيه القضاة رسالة جيدة لكنها ليست من التفكير الفلسفى فى الاسلام . وليس اختلاف الصحابة فى موت النبى ودفنه ، وقتال مانعى وجــوب الزكاة والخلاف بين عثمان وعلى من صلب هــذا التفكير ، وأيا كان الأمر ، فقد عنى الدكتور عبــد الحليم بذكر الخـلاف فى عهد الرسول أيام مرضه ، واعتمد فى ذلك على ما كتبه الشهرستانى ، وفى رأينا أن ذكر هذه الخلافات كلها وعددها عشرة ، لم يكن ضرورة ملحة ، بل ربما كان تركها اولى وأجدى .

وعلى عكس ذلك نعترف بأهميــة الفصل السادس وخطورته فى موضوعه واتصاله الوثيق بالتفكير الفلسفى فى المجتمعات الاسلامية ونعنى به موضوع الاختلاف فى الامامة .

وقد عالج الموقف فكرة أصل الشـيعة ، وذكر الآراء المختلفة فى هذا الأصل . كرأى فلهوزن الذى يرى صـلة بينها وبين أصول يهودية أكثر منها فارسية وكرأى الأستاذ « دوزى » الذى يغلب العنصر الفارسى فيها . ثم يعرض لنا رأيه الخاص منكرا العنصرين الفارسى واليهودى ويرجعهما الى الامام على ، ويسير جنبا الى جنب تقريبا مع الدكتور طه حسين ، ويسيران معا الى جانب ابن أبى الحديد صاحب شرح نهج البلاغة ، ومع احترامنا لهما وله ، فانا نرى رأيا مخالفا ونرجح تدخل أصــحاب الغنوصية فى الفتنة الكبرى ..

ومهما يكن من شىء فانا نجـــد الدكتور عبد الحليم شـديد الميل الى فكرة الدكتور طه حسين والى محاولة تفسـير الأمــور تفسـيرا سـيكولوجيا مبســطا كشفنا النقاب عنه فى مناقشاتنا لبعض الرسـائل الماجستير فى كلية الآداب بجامعــة الأسكندرية كرسالة « جعفر الصــادق » ، ورســالة الأمامــة عند الامامية الاثنا عشريةوتصوفمدرسة بغداد» . وربما أتيح لنا أن نعرض وجهة نظرنا فى بحث خاص ومنفصل وبعد هذا كله ، فاننا نرفض فكرة الشعور بالندم التى توسع فيها الدكتور طه حسين ، وارتضاها الدكتور عبــد الحليم محمود وآخرون . فقد بحثت الشـيعة دائما ، كما يثبت التاريخ ، عن ضحية من آل البيت رغم ما يقال من الشعور بالندم . وقد انتهى بعض الغلاة الى تأليه على ، ثم الى تأليه الأئمة ، ثم الى تأليه الدعاة عنــد الاسماعيلية . وتسرب جانب من ذلك الى بعض المتصوفة كالحلاج مثلا .

ونلاحظ أن حديث الدكتور عن الاماميــة حديث مختصر دون رغبــة فى التعمق فى دراسة عقائدها ، وهــذا موضوع رأينا أن نعهد به الى أحد تلاميذنا لتحضير رسالة للماجستير . غير أن الدكتور عبد الحليم يجد نفسه مضطرا الى ذكر بعض هــذه العقائد باختصار شديد كعقيــدة الرجعة وعصمة الأئمة والتقية ، ويصر بعد ذلك كله على أنهم حزب لا فرقة ، وهــو يفضل أن لا يدخل معهم فى جــدل حول أحقية الامام على بالامامة ، ثم يرى أن الزمن كفيل برد الشيعة الى السنن القويم ..

وحديث الدكتور عن الخوارج موجز . وكان ينبغى أن يشير الى نصيبهم فى تدبير الفتنة الكبرى وانحراف أتباعهم فيما بعد ، لكنه يكتفى بذكر مناقشة الامام على لحججهم ونرى لدى الدكتور ميلا الى تبرير رأيهم فى الامامة ، وقد عرض فيما عرض لفرقة المرجئـة ، وتكلم عن مبدئهم القائل بأنه « لا تضر مع الايمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة ، وعن رأيهم فى الكبيرة وفى مشيئة الله المطلقة » وفصل بعض التفصيل فى كلامه عن بعض طوائفهم كاليوشية ، وبين الصلة بينهم وبين أبى حنيفة ، ويختتم هــذا الفصل بأنهم قريبون من أهل السنة ..

ونشهد فى الفصل السابع ، وهو خاص ببدء الاختلاف فى الأصول ، عرضا سريعا للفرق ، وهو

عرض ينقصه التحديد ، لكن موقف الدكتور عبد الحليم رغم ذلك واضح كل الوضوح وهو ميله الى التسامح . وهذه له لا عليه . فان الشقاق المزمن بين هذه الفرق قد أصبح غير ذى موضوع ، ولا سيما بعد تقدم المعرفة ، واتساع آفاق الثقافة وسقوط كثير من المشكلات المزعومة التى تقوم عادة على أساس من سوء الفهم وهو حليف التعصب . .

ويبدأ هذا الفصل ببيان موقف بنى أمية ، واتجاههم الى استخدام فكرة الجبر أساسا لسياسة زمنية بعيدة النظر تبرر ظلمهم وملكهم مما دعا الى رد فعل يقرر حرية الارادة وشرعية التكاليف وانكار القدر ، وهذا ما قام به معبد الجهينى ثم غيلان الدمشقى ، وقد قيل عنه أنه واحد دهره فى العلم والزهد والدعاء الى الله وتوحيده ، غير ان هشام بن عبد الملك يرسل اليه من يقتله . ووجد بنو أمية أنصارا من أهل الجبر ، وقد برد هؤلاء رأيهم بتأكيد المشيئة الالهية المطلقة .

ويمثلهم الجعد بن درهم ، وجهم ابن صفوان ، أما الأول فكان أستاذ مروان بن محمد ، واما الثانى فانه قال بالجبر ، وقد غلا فى تنزيه الله عن الصفات الى حد أنه كان رأس من يسمون بالمعطلة ، ومن الممكن القول بأنه من أسلاف الاسماعيلية ، ومن الغريب أنه يجمع بين الجبر والتعطيل ، وهذا شبيه بما نجده لدى متصوف مشهور وهو الحلاج ، ومن آرائه التى نمت عند الاسماعيلية واخوان الصفا قوله باستقلال العقل عن الوحى ، وقوله بأن الايمان عرفان (gnose) ، اما العمل فثانوى ، ويشبه الحلاج فى هذا اذ يقول هو الآخر باسقاط الوسائط (١) غير أن الحلاج لم يأخذ عنه قوله بنفى رؤية الله ، اذ ذهب الى القول بالاتحاد الجوهرى بالله « نظرية الشاهد العينى التى توجد أيضا لدى القرامطة » .

وقد فطن الدكتور أحمد أمين الى سبب عداء الناس لهذه الحركة « ولعل أهم ما حملهم على الرد مسألتان . مسألة الجبر لأنها تدعو الى التعطيل وترك العمل .. ومسألة المغالاة فى تأويل الآيات التى تثبت على صفات ، وفى هذا التأويل خطر على القرآن وتفهم معانيه . ومع ظهور العناصر الأجنبية فى هذا المذهب . فان الدكتور عبد الحليم محمود يرى رأيا مخالفا ويقول : « ان كل هذه المواقف طبيعية ، لا شأن للأثر الأجنبى أو الدخيل فيها . ولكن التعصب المذهبى أخذ يملى على أصحابه ما شاءت الظنون . » ونميل نحن الى أن التوافق أو التطابق العجيب بين هذه الآراء وآراء سابقة كانت فى ارض فارس ، لا يمكن أن يكون وليد الاتفاق ، أو المصادفة ، اذ لا سبيل الى المعجزات فى مجال الفكر الفلسفى . .

وأخيرا فانا نشكر للدكتور عبد الحليم محمود هذا المجهود العظيم الذى بذله فى اعداد الجزء الأول من كتابه ، وانا على يقين انه أول من يعلم أن الحافز الأول على عرض بعض وجهات نظرى الخاصة أنها تهدف قبل كل شيء الى خدمة موضوع دراستنا المشترك . ولعلى أعود الى عرض وتحليل الجزء الثانى من كتابه فى مناسبة أخرى . . .

الدكتور محمود قاسم

---

(١) انظر كتاب ماسينيون عن الحلاج : الشهيد الصوفى فى الاسلام .

قاب قوسين

بقلم الشاعر محمود حسن اسماعيل

حينما أصدر الشاعر محمود حسن اسماعيل ديوانه الأول : « أغاني الكوخ » في يناير عام ١٩٣٥ — لا في عام ١٩٣٤ كما يقول في آخر ديوانه الجديد : قاب قوسين — كتب له « مؤخرة » ، لا « مقدمة » على نحو ما يصنع الناس في كتبهم حين يستهلونها بكلمات التقديم ، وأسمى تلك المقدمة المتأخرة في آخر الديوان : « كلمة ختام » ، وهي كلمة طويلة نسبيا ، أودعها الشاعر الناشيء — يومذاك — كل ما أراد أن يقوله عن الروح التي أوحت الى الشاعر « أغاني الكوخ » ، وكيف اندمج بشعوره اندماجا كليا فيما وقع عليه بصره من مظاهر الطبيعة ، وكيف صور شعوره ازاءها ، وترجم عما يخالج نفسه من أثر الاندماج فيها .

ورأى الشاعر محمود حسن اسماعيل في تصوير الطبيعة المصرية بالشعر — أو بأية وسيلة من وسائل الفن — ضربا من الوفاء الذي لا ينهض عذر في التخلف عنه . ورأى اغفال الطبيعة المصرية واهمالها لونا من العقوق — بل هو العقوق بعينه — لبيئة نبتنا فيها ورحنا نتغنى بغيرها .

وراح الشاعر الناشيء يومذاك ، العاكف على نايه على أبواب الكوخ ، يصور لنا في « مؤخرة » ديوانه الأول ، وفي نثر يكاد لولا الخلو من الوزن والقافية يكون شعرا ، بعض وجوه من الطبيعة والريف في مصر تركها الشعراء ، وغفلوا عن مواطن الحسن ومثارات الحس فيها ، وراحوا يحاكون أو يقلدون أثرا أدبيا قديما في لغتهم أو لغات أجنبية ثم يزعمون أنهم عباقرة مجددون . . وندع صاحب « أغاني الكوخ » نفسه يحدثنا بلغته قائلا :



الناشر : دار العروبة ٢٤٦ ص
١٤ × ١٩ سم • الثمن ٨٠ قرشا

(تتهادى الريفية الوادعة الى النيل عند الغروب لتملأ جرتها ، كأنها طيف أوزوريس يشهد الدمعة الخالدة التى سكبتها ، فنضرت جنة فى الرمال ، وفجرت نهرا فى قلب الصحراء ! وأنبتت شعبا لم يحمل لواديه خلجة من وفاء !! وتتراقص أزاهر القطن على مهادها الأخضر الريان ، ثم تتفتح عن زهر أبيض جميل كأنه أحلام النيل بعثها لتحدث عن مجد غابر ، وتغرى بالتلفت الى فردوس مهجور ! والشاعر فى مصر شخصى النزعة ، ينظم فى كل مالا صلة له بالبيئة أو بالفن على الاطلاق ، ويشرد من هذا المنبع الخصيب الى أثر أدبى قديم فى لغته أو لغة أجنبية ، فيحاكى ، وينقل ، ويقولون : عبقرية وتجديد ..)

هذا كلام قاله الشاعر محمود حسن اسماعيل منذ ثلاثين عاما ، وهاجم به كل شاعر فى مصر ، ولا ننسى انه كان من هؤلاء الشعراء أحمد محرم ، ومصطفى الرافعى ، وعباس العقاد ، وعلى محمود طه ، وابراهيم ناجى ، وأحمد زكى أبو شادى ، ومحمد الأسمر ، ومحمود غنيم ، ومحمود عماد ، ومحمود أبو الوفا ، ومحمد مصطفى الماحى ، وعبداللطيف النشار ، وعلى الجندى ، وحسن كامل الصيرفى ، وفخرى أبو السعود ، وطاهر أبو فاشا ، والعوضى الوكيل ، ومختار الوكيل ، وصالح جودت ، والهمشرى ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ، وفايد العمرسى ، وعبد العزيز عتيق ، وزكى مبارك ، والسيد حسن القاياتى ، ومحمد عبد الغنى حسن ... !!

ولقد كان الشاعر محمود حسن اسماعيل على كثير من الحق حين نعى على شعراء مصر فى ذلك العهد اغفالهم للطبيعة المصرية . والحق أن الشعور « بالبيئة » لم يكن آخذا قسطه فى أى لون من الوان الفن ، سواء أكان فنا قوليا ، أم فنا تشكيليا . لقد كانت الشخصية المصرية تائهة ضائعة المعالم ؛ فالقصة مثلا لم تكن تصويرا لمصر ولا تعبيرا عن الحياة فيها ، بل كانت صورا أجنبية غريبة على البيئة المصرية ، الا ما كان من قصة « عذراء دنشواى » لمحمود طاهر حقى ، فقد كان صدورها سنة ١٩٠٩ تعبيرا عن الواقع المصرى فى حادثة هزت ضمير العالم هزا عنيفا ، وكانت فى وصفها لمجالس الريف ، وأحاديث الفلاحين ، وتناول مشكلاتهم ، وألوان تفكيرهم ، بلغاتهم ولهجاتهم الدارجة ، أول محاولة قصصية للتعبير عن الشخصية المصرية فى بعض مظاهرها . ولن ننسى فى هذا المجال محاولات محمد تيمور رحمه الله ، وعيسى عبيد وشحاته عبيد فى سبيل التعبير بالقصة عن شخصية مصر وبيئتها . ولا نزال نذكر بعض عبارات من كلام عيسى عبيد فى مقدمة لمجموعته القصصية : « احسان هانم » التى صدرت فى آخر سنة ١٩٤١ . فقد نعى فيها على الأدب العصرى المصرى فى وقته أنه غير مستقل ولا موسوم بطابع شخصيتنا (فهو ما زال خاضعا للأدب العربى الجامد المتشابه القديم ، أو متأثرا بنفوذ الأدب الأجنبى ، الذى اضطررنا الى درسه لنتعلم منه أسرار الفن الصحيح الراقى ، ونأخذ عنه قواعده وقوانينه وأسلوبه) .

ولقد كان الفن التشكيلى فى مصر اسبق من الأدب والشعر والقصة فى التعبير عن « المصرية » تعبيرا كاملا منطلقا ، ففى آثار المثال محمود مختار ، وراغب عياد ، ومحمد حسن ، ويوسف كامل — وهم رواد الحرية الفنية فى مصر — تلمح الطابع المصرى واضحا مميز المعالم ، وترى الفلاحة والأحياء الشعبية ، والقرية ، والسوق ، والعادات القومية ظاهرة دائرة فى أغلب انتاجهم . بل تجد المثال محمود مختار وقد وقف فنه على الريف وأهله ، « فالفلاحة » عنده هى النموذج الأصيل الذى دارت حوله موضوعات فنه .

صحيح أن شعراء مصر لم يغفلوا الطبيعة المصرية اغفالا تاما ، ولكنها كانت تظهر على بعض آثارهم من حين الى حين ، فلم يكن لها المحل الأول من تقديرهم واعتبارهم ، بل كانت الصور تأتى عفو الخاطر ، وقد تغب اغبابا طويلا ، ثم تعود خاطفة على غير قصد مرسوم . فلما جاء محمود حسن اسماعيل كان راهبا متبتلا فى دنيا الطبيعة ، ملازما لها مستغرقا فيها ، وكأنه كان قبل نظم ديوانه الأول : « أغانى الكوخ » ، يهيىء نفسه فى حالة من التلقى والالهام ، فاختزن من

تلك المخالطة القديمة الطويلة بينه وبين الطبيعة المصرية صورا وخواطر ورؤى ، وسبحات ، انطلق بها في أغانيه ، وصبها صبا دافقا قويا في أول دواوينه . ونحن مصدقوه فيما يقوله في هذا الصدد : (لم تكن الروح التي أوحت أغاني الكوخ ، فيما طالعت من شعر الطبيعة بهذا الديوان ، وليدة عام أو عامين أو أكثر ... ولكنها في الحقيقة وليدة شباب كامل حضنته الطبيعة في ريف مصر منذ الطفولة اللاهية الى عهد قريب ، تغلغلت به روحي الشابة في جميع مظاهر الطبيعة وأسرارها ، حتى امتزجت بها الامتزاج الذي أورثها الحنين الدائب الى تلك الحياة الهادئة بين الحقول المصرية الممرعة ، والقرى النائمة على ضفتي النيل الزاخر ...)

ولم تكن الطبيعة المصرية وحدها هي مجلى الفن ومصدر الالهام في شعر محمود حسن اسماعيل في أول دواوينه ... لقد كان الحب عاملا أكبر في تجلية الطبيعة عنده على أحسن مجاليها ، وفي أبهج وأروع مفاتنها . والحب عند شاعرنا ليس انتحالا ولا محاكاة ولا جريا على مذاهب الشعراء القدامى في النسيب ، فالشاعر الوفي للأرض وما عليها كل هذا الوفاء ليس بغريب عليه أن يكون صادقا حين يحدثنا عن الحب ، وأن يكون صاحب تجربة فيه ... ولقد اضطر محمود حسن اسماعيل في مؤخرة ديوانه الأول « أغاني الكوخ » أن يشير الى فضل الحب عليه (في كشف المخبوء من جمال الطبيعة ورصد احساسه لجميع دقائقها ، وصهر المشاعر الوجدانية التي يلهبها غرام الشاعر في نفسه ومزجها بكل ما يحيط به من صور الطبيعة المختلفة ...)

ولعل سائلا يسأل : نحن الآن أمام ديوان جديد للشاعر محمود حسن اسماعيل ، هو خامس ما ذكره من دواوين ، فما بالنا نعود القهقرى ثلاثين عاما لنقلب صفحات ديوان قديم ؟ ولكنا قصدنا بهذه الرحلة السريعة أن نصل آخر انتاج الشاعر بأوله ، لنرى كيف فعلت السنون بشعره وشاعريته ، وهل استحدث الشاعر في الشعر رأيا غير الذي كان له في أول انطلاقه ؟ وهل غيرت الأيام من صوره وخياله وموضوعات شعره ومجالات انطلاقه وطرائق تعبيره ، وقوالب صياغته ؟ ولا شك أن الشاعر يسره أنه قد تغير .

واذا كان الثبات يحمد في موقف ، فانه في الشعر غير محمود ، لأنه علامة التوقف والجمود .

فلقد عاب ناقد على المرحوم عباس محمود العقاد أن (كروانه) قد تغير ، وأن عشرين عاما لم تغير الشاعر في طراز بيانه ... فالعقاد يخاطب كروانه قائلا :

زعموك غير مجدد الألحان
ظلموك بل جهلوك يا كرواني
قد غيرتك ، وما تغير شاعرا
عشرون عاما في طراز بيان

والناقد لا يكاد يصدق ما يزعمه الشاعر من أن الكروان قد تغير وتغيرت نغماته ، بينما الشاعر ثابت لم تغيره عشرون عاما ، مع أن التغير قد يكون الى أحسن ...

على أن الشاعر محمود حسن اسماعيل في ثاني دواوينه : « هكذا أغني » — وبعد ثلاث سنوات من صدور ديوانه الأول — قد أكد لنا أنه تغير في بعض موضوعات الشعر ، كما تغير في طرائق تعبيره ، فزادت العبارة قوة ، وزادت الصورة وضوحا ، وزادت الرؤية اتساعا وعمقا ، وزاد الخيال تحليقا ، وزادت الألفاظ مواتاة وتطويعا وحسن أداء ، وزادت التجربة بقدر ما أضفته السنون على عمر الشاعر في ثلاثة أعوام ! وهي عهد ليس بالقليل عند من يفيدون بالتجارب .. أما الموضوعات فقد ظلت « الطبيعة المصرية » مصدر ألهامها ، وظل « الحب » مدار الاحساس بجمالها ... بل أغلب الظن أن الحب في هذا الديوان قد أخذ طابعا متميزا مستقلا عن الطبيعة ! فظهرت له قصائد : « أسرعي قبل أن تموت الأغاني » و « صوتها في ضميري » و « حين أطرقت » . ورأينا الشاعر هنا بدأ يخرج من « الانطوائية » التي كان قد فرضها عليه التأمل في الطبيعة والريف ، الى الحياة العامة والى المجتمع ، ثم تلح عليه الحياة الرسمية الاجتماعية ، فيمدح من لا يستحقون المدح — وهو منزلق وقع أكثرنا فيه !؟ — ويؤبن ،

ويذرف دمعة هنا على فقيد ، ويبكى ما أصاب البلاد من تطاحن حزبى ، ويزفر زفرة حارة على فلسطين الدامية ، يرفعها الى ضمير الانسانية ، والى ريح التاميز العاتية ..

ويظل شاعرنا يتطور ويتغير — الى الأحسن دائما — حتى نلقاه فى ديوانه « أين المفر » فاذا حبه للطبيعة يزداد وينمو ، واذا احساسه بشقاء الفلاح يزيد رهافة فى مثل قصيدته : حصاد القمر ، والنبى الجائع ، واذا الحب عنده ظمأ يؤججه الحرمان ، وتغلفه الأسرار :

على شفتيك أنهار
محرمة وأثمار
وفى عينيك أسرار
وأبريق وخمار
فمالك لا ترويني ؟

واذا هذا الشاعر الذى كان منعزلا يغرد أغانى الكوخ ، وجمال الطبيعة ، وشقوة الفلاح ، يصبح عابدا فى هيكل الحب ، تحرقه المواجد ، ويذيبه التطلع الى الأعالى ، ويستوى عنده الفناء والحياة أمام قدس الجمال : —

جمالك ذلك الفتاك
ربيع هل من ذاتك
خذينى بين راحاتك
وطيرى فى سماواتك
وأفنينى ، وأحيينى !

ولا يكتفى الشاعر بما بلغه هنا ، ولكنا نراه يجنح الى « التأمل » ، ويتطلع الى عالم النفس يستشف ما وراءه ، ويحدده شوق عارم الى استكناه أسرار النفس ، وتؤرقه مجاهيل العلاقة بين كثافة التراب ، وشفافية الروح .. فاذا النفس بين يديه تبكى ، وللنفس دموع حين تبكى وشهيق ... : —

وهفا بالنفس ما يهفو بغصن فى يد الاعصار يعول
ثم قالت :
كيف عن دمعى ومنك الدمع يا حيران تسأل ؟
ان أكن فيك سكنت الجسم والجسم تراب يتنقل
فانا طير بعرش الله ، لى عش ، وبستان ، وجدول
انما أبكى لهذا القفص الداجى الكئيب المتمامل
لم يجد اى عزاء فى وجودى . كيف يغدو حين ارحل ؟!

كانت هذه الحيرة وهذا القلق النفسى ، وهذا التحرق الى استشفاف أسرار النفس أول ما ظهر من شعر محمود حسن اسماعيل فى ديوانه « أين المفر » سنة ١٩٤٨ . وظلت الأسئلة الحيرى تتوارد على عقل الشاعر منذ ذلك الحين حتى رايناه فى بحثه عن الحقيقة ، وفى ارتياده لمتاهات المجهول يقترب من الله خطوة أو خطوتين ، فكان فى ديوانه الأخير « قاب قوسين » أو أدنى من الوصول الى مرفأ المعرفة ، أو قاب قوسين أو أدنى من الوصول الى الله ... أليس البحث عن الحقيقة ، هو فى ذاته بحثا عن الله ، ومتجها فى طريق الوصول اليه ؟؟

ويظل الشاعر محمود حسن اسماعيل حاديا نفسه ، يطوى الدروب فى طريق الوصول الى السر : —

مزقى عن وجهك اليانع أسمال القناع
وارفعى الستر بلا خوف على أى متاع
زادك النور ، وفى دربك ينبوع الشعاع
فانفذى ... فالسر ان سرت على قيد ذراع
واصرعى الموج ، ولو أقبلت من غير شراع
واركبى الأعصار ، والأصرار فى وجه القلاع
انما الخائف عند الزحف محتوم الضياع
فاكشفى ذاتك وامض ، واتبعينى فى صراعى



ولا يسكت الشاعر عن محاولاته ومغامراته فى سبيل اكتشاف السر ، وهتك الستار عن كل ما توارى عن الأنظار ... فهو متحرق طلعة الى الوصول ، مهما صادفه على الدرب من أهوال ، وهو لا يخاف لأن الخائف عند الزحف محتوم الضياع ... وهو يحدو النفس الى مغالبة الموج ولو من غير شراع ... !

وفى هذه المرحلة الجديدة من مراحل التأمل والاستشفاف عند محمود حسن اسماعيل نراه يتخلص من جمال الجسد وجمال الطبيعة الى طلب الجمال الأعلى .. ذلك الجمال الذى يمد كل جميل فى الحياة بإشراقة نوره ، ونفح عبيره ، فهو متطلع دائما الى الذرا العالية ، وهو مشتاق الى « التجلى » الالاهى من وجه الله ، كما تجلى رب موسى للجبل .. وقد كان تجلى الأله للجبل قوة لم يحتملها ذلك المارد الأصم الوقور على ظهر الفلاة ... فهل يطيق شاعرنا أن يتجلى الله له ، أو يرنو اليه ؟؟

لقد الح صاحبنا فى طلب ذلك وليكن بعدها ما يكون ! : —

رب ! سحر الجمال
شب فى جانبى
أينما ملت مال
بلظاه العتى
فطلبت المحال
من زمانى الشقى
وصحبت الخيال
فى الضحى والعشى
واذا بالمآل
حفنة فى يدى
من رفات الظنون
وهشيم الغصون
رب تمضى السنون
وليكن ما يكون
حين ترنو الى !!

وهذا التطلع والتحرق من محمود حسن اسماعيل يتجه دائما نحو « عالم أخضر » ... « فالخضرة » عند شاعرنا الريفى الفلاح الوفى هى الرمز الخالد دائما للاستقرار والراحة والتخلص من أعباء الحياة الثقال ... وهى الراحة التى يجد الشاعر عندها الظل الوارف بعد أن شواه لفح الهجير ... وهى النور الذى يسكب الضوء فى نفس الشاعر :

بزغ الفجر ، وشق الدرب فيه بالمعاول
فازحفى ... فالنور ظمآن الى موج القوافل
واتبعينى ! فالفد الأخضر فوق الدرب ماثل

ويظل شاعرنا فى مسراه ومنعرجه نحو « الضفاف الخضر » ماضيا على الطريق ليس فى نيته أن يتوقف ... فاذا حدثته النفس بالعودة خاطبها قائلا :

أرجعى انت .. ! فانى للسفوح الخضر سائر
لصباح ليس فيه نظرة من جفن صاغر ...

وقد تكون السفوح الخضر التى يرويها الشاعر محمود حسن اسماعيل مجللة بالضباب الذى يلفها فى غلالة خضراء ، فينظم قصيدة « الضباب الأخضر » منطلقا فى سراه نحو السر البعيد :

دعونى أغنى فان الغناء
طريقى الى كل سر بعيد
خلقت لأرتاد روح الحياة
وأستل أعماقها للوجود
ومهما سرى قبلى السائرون
فانى على كل خطو جديد ..

وتلتقى فى السفوح الخضر عوالم من النور والضوء ، ولكن الطريق اليها طويل مرير ، ولا يزال الشاعر يعلل نفسه بقرب الوصول ، ويحث راحلته — وهى نفسه الحيرى — على السير ، وهتك الغيابات والغياهب وتمزيق كل قناع ، قائلا :

قاب قوسين من النور ... فسيرى
وأهتكى كل لثام فى الضمير
وانهبى غيب المدى واحترقى
فى اللظى الباقى على نار .. ونور
مزقى كل قناع ... وانفذى
من حواشيه الى الضوء الأسير

ولا يزال صاحبنا « بالنفس » يحدوها على السير فى رحلة مضنية نحو النور والضياء ، فتارة يقول لها :

أوراق النــــور ، وشـــبت ناره
تضرم التغــيير في أعتى الجـــذور

وتارة يبشرها بأن النور قريب ، وأن الوصول قاب قوسين :

قد وصـلنا ... لم نكد !! فاقتربي
من ضــفاف النور ، في قاع الصدور
قاب قوســـــين .. بلى ! انا على
قاب قوس من ضحى المرسى الأخير !!

ولا ننسى هنـــا النقلة البارعة من « قاب قوسين » الى « قاب قوس » واحـدة ؟ ايذانا بأن المدى قريب .. !! فاذا صادفه على الدرب خيال الأثم وطيف الخطيئة فان الشاعر يزيد من حث نفسه على العبور : ــ

واذا صـــادفت في الدرب خيـــالا للخطيئة
فاعبريه ، واخلصي من صـمتها الدامي هـدوءه
لم تكن تطويك في صـــحبتها أي مشـيئة
أنت شـــاهدت ، فاقدمت على النور جريئة
وهي جاءت من فجاج النور ، كالنور مضيئة
جرفت فيـــك المـــآسي واللذاذات الخبيئة
فشربت الكأس من كف الى النور مسيئه
فاستمري ، واتبعيني .. أنت من ذنبي بريئة .:

ويطالعك « النور » و « الضوء » في كل وجه من صفحات هذا الديوان الجديد للشاعر محمود حسن اسماعيل حتى لقد شعت اضواء « النور » في صفحات ٣ ــ ٤ ــ ٥ ــ ١٠ ــ ١٢ ــ ١٣ ــ ١٥ ــ ٤٩ ــ ٦٠ ــ ٧٥ ــ ٨٢ ــ ٨٥ ــ ٩٨ ــ ١١٣ ــ ١١٧ ــ ١٢١ ــ ١٢٢ ــ ١٤٣ ــ ١٤٥ ــ ١٨٢ وغيرها ؛ فأينما سرت في قراءة هذا الديوان رأيت « نورا » يملأ فجاج الأرض ، ومسالك السماء .. بل رأيت نورا يملأ كل كوة في نفسك ، ويفيض عليهـــا باشراق جـديد ... وليس « النور » هنا هو الغاية التي تهدف اليها النفس في رحلتها وحسب ، بل هو الخير ، أو رمز الخير ، كما أن الظلام والدجى رمز للشر .

ففي قصيدة « راية العرب » ــ وهي شعر سياسي قومي وطني ، لا محض تأملات ورؤى ــ نرى الراية الخفاقة الرفافة للعروبة تمحو من طريق الفجر ليل المستحيل ، وتزأر بالنور في كل ثرى لم تزل بقايا من ظلام :

في ظـلام الـدرب ، في المـاضي الطويل
كم حضنت العهـد جيـلا بعـد جيل
ومحــــــا خطـوك في اصراره ..
من طريق الفجـر ليـل المسـتحيل
وضربت الســـير ، حتى سـطعت
شمسـك الكبرى على كل سـبيل ...
بصــباح الوحـدة الكبرى الأبيــة
عـــدت من حلــم الليـالي العـربية
فــازأري بالنـــور في كل ثـــرى
لم تزل فيـــه من الليـل بقيـــه
فاذا شــارفت أرضـــا ... زمجرت
ظمـأ للفجـــر . من قلـب الخيـام
فارشـــقيها بشــــعاع مـؤمن
يسـترد النور من أعتى ظـلام ...

«فالنور» عندشاعرنا محمودحسن أسماعيل غاية لهدف ، ونهاية لطريق ، ورمز لفكرة الخير في الحياة ...

وهو ــ يعني شاعرنا ــ سائر بالنور ونحو النور ، في طريق يصطرع فيه الخير والشر والعدل والظلم ...

اتبعيني ! فمعي الفجـر الذي احيا رفاتك
ومعي النور ، انطـلاق ومضى لحيـاتك
ومعي الريح ، زوال هب يفني ظلمـــاتك
ومعي الايمـــان ، مصـــباح الهي لذاتك
يجرف الظلمـة ان مست عصاها طرقاتك
فازحفي ... قد بادت العتمة من كل جهاتك
وركبت الضوء ، معراجا لأعتى امنياتك ..!!

وما دام صاحبنا يسـير مع النور ، نحو النور ، فلا خوف عليــه من يأس يتسلل الى نفسه .. انك تلمح في شعره هنا وميضا قويا من الايمان والأمل والثقة والاطمئنان . وكيف ييأس أو يخاف أو يتشاءم من كان في موكب من النور الى النور .

ومعى الايمان ، مصباح الاهى لذاتك
يجرف الظلمة ان مست عصاها طرقاتك

وما أكثر ايمان شاعرنا وهو يقول فى قصيدة له عنوانها « تسبيحة » : —

الهى ! تباركت رب السماء
مع الليل تبعث فجر الضياء
وتفتح لليأس باب الرجاء !!

ويظل الايمان والأمل والتفاؤل يصاحب شاعرنا حتى فى اللحظات التى يفقد فيها كل مؤمل امله ؛ اسمعه وهو يقول فى قصيدة « ربيعنا لا يموت » : —

فلا تفزعى ان اطل الخريف
ولم يبق فى اللحن الا خفوت
فلو مات فى روضنا كل شىء
فان ربيع الهوى لا يموت

ولقد عاش محمود حسن اسماعيل حياته كلها — منذ أنطق الله وتر الشعر فى لهاته — يبكى على الفلاح ، وسوء حاله ، وحقارة كوخه . ولكن شاء الله أن يعيش محمود حسن اسماعيل حتى يرى الفلاح وقد استعيدت كرامته ، وارتفعت قامته ، وتحرر من الأثقال كاهله ! ويرى الكوخ وقد صار ظلامه وأغلاله بقايا رفات ، تتضوأ على زوالها كرامة الانسان ... وكان طبيعيا أن يغنى محمود اسماعيل فى هذا الديوان مع الشعب أفراحه .. فيودع « جنازة الرق » بقصيدة فاتنة ، ويودع تراب الكوخ باخرى قوية البناء . ولا تزال حافظته تستبقى بعض الصور التى أزالها موكب التحرير ... فصورة الكلب الذى يتمتع عند الاقطاعى بما لا يتمتع به الآدمى ، تتكرر فى القصيدتين . وفى توكيد الشاعر لهذا المعنى ما يؤكد أثره فى نفسه : —

واذا كلبه تأذى من التخ
مة ضجت حياته لأذاه !

وفى القصيدة الأخرى عن ذلك الكلب المدلل :

رأى كلبه خلف السياج مكرما
قرير الخطا فى كل ناد وسامر
اذا أن ... داخ الطب حول مزاره
وأرخى له التدليل خز الستائر !

ومن حوله الانسان فى البؤس والضنى
وطب الرقى ... يزجى دخان المباخر ...

فالشاعر هنا لا يكرر نفسه ، ولكنه يكرر الصورة الأليمة التى اهتزت لها نفسه .

وعلى ذكر « الصور » لابد لنا من كلمة حول صور محمود حسن اسماعيل الشعرية ؛ وهى صور قل أن نجد لها مثيلا فيما الفناه من صور الشعر العربى ، وقد يستعين عليها شاعرنا بالتمثيل والتخيل والتشبيه التركيبى والاستعارة البعيدة ، ولكنها — حتى على اغرابها وغموضها بعض الحين — صور فواتن . وما ظنك فى قول صاحبنا :

أنا والكوخ وليل فى فجاج الرق واغل
وزمان أحدب الخطوة من عض السلاسل

فهل رأيت — عمرك الله — خطوة حدباء ؟ الا على سبيل الاستعارة البعيدة المعقدة ؟ .

وانظر الى صورة الاقطاعى الظالم وهو فوق جواده :

على ظهره باغ ، تورم خده
من التيه موصوف بنسل الأكابر
عتل ، اذا شق الطريق ترى له
تاله تمثال على الصمت سادر !
مصارة الاجيال من السطو لم تجد
لها زبدا الا ضجيج الظاهر .. !

وانظر الى صورة الفلاحين الكادحين وهم يفتشون عن حفنة من الذرة أو القمح تسد جوعهم : —

والا بقايا ، خلف الجور عودها
من السبل المنبوذ بين الحفائر
سنابل القتها المناجل غفلة
وكيزان حب خاويات الضفائر !!



يفتش عنهـا الكادحون بوهمهم
ويبحث عنهـا جـوعهم بالأظافر !

وانظر الى هذه الصورة الرائعة التى شبه فيها شاعرنا ماذن المسلمين بالسواعد المشلولة الممتدة فى الفضاء ، وقد تجمد فيها دعاء البشر ، وهى تمد الى الله راحاتها مع أذان الفجر العربى الزاحف لتحرير فلسطين :

ولاحت ماذنهـا فى الظلام
وقـد أذهلتها عوادى الغير
سواعد مشلولة فى الفضـاء
تجمـد فيهـا دعاء البشر
تمـد الى الله راحاتهـا
وتزار فى صمتها المستمر !!

وانظر الى هذه الصورة التمثيلية الدقيقة لوجه المنافق المداهن الامعة : —

اذا قيل : هـذا الصخر ماء رأيتـه
يردد للينبوع شـوق السـباسب !
وان قيـل : هـذا المـاء نار رأيتـه
عليهـا مجوسـيا عريق المذاهب !
وان قيل : تلك النـار فجر .. رأيتـه
أذان مصـل هـز سـمع الكواكب
وان قيـل : هـذا الفجر قبر .. رأيته
من الشكل يستجدى دموع النوادب ... !

على أن هذه الصور التى لا تنال بأدنى خيال ، ولا بأقرب رؤية ولا بطائر لها الا على جنـاح من التخيل والتشبيه البعيـد ، تواكبها فى الديوان الجديد لمحمود حسن اسماعيل صـور شعبية دارجة مألوفة كقوله فى الاقطاعى الظالم :

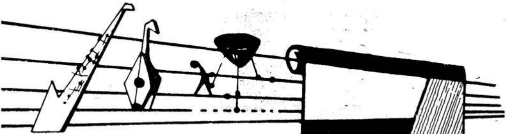
ويسرق كحل العـين ان شـاء ظلمه
ولو كان خلقـا ، من جفون الحرائر !

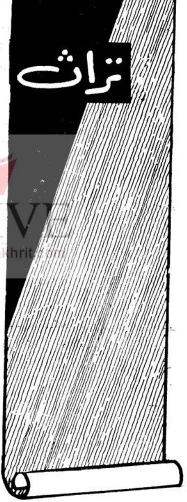
وكقوله من مناجاة الأمعى لنفسـه فى عيـد العلم :

واذا سـبابتى مـدت يدا
لهجـاء اللوح ، عادت ترتمى
تضرب الكف على الكف ، على
خافق للعلم ، حيران ، ظمى ...

« فسرقة الكحل من العـين » ، « وضرب الكف على الكف » هى من التعبيرات التى تؤكد لنا أن محمود حسن اسماعيل — حتى وهو فى مراقى تحليقه وابداعه — ينزل معنا الى الأرض بعض الحين ؛ وهو نزول لابد منه لمن يظل حياته فى رحلة دائمة بين الأرض والسماء ... !!

محمد عبد الغنى حسن





تراث الموسيقى العالمية

ترجمة : دكتورة سمحة الخولى

مراجعة وتقديم : دكتور حسين فوزى

عندما يحاول المؤلف ان يتناول بقلمه الكتابة عن عصر واحد من عصور الموسيقى ، او بتعبير آخر ان يؤرخ للموسيقى فى عصر معين ، فانه يجد نفسه امام بحر خضم بعيد الغور واسع الجنبات ، بسبب تعدد مناحي الموسيقي علومها وفنونها . فهناك انواع الآلات الموسيقية واختلاف أسرها وتشعب فروعها . وثمة قوالب التأليف الآلى والغنائى والصيغ والتراكيب ، والسلالم الموسيقية وما يبنى عليها من المقامات ، والقواعد والنظريات . كما نجد انواعا « وألوانا » من الموسيقى الشعبية والمسرحية والموسيقى المعبرة عن الجوانب الدينية . ثم فلسفة الموسيقى وآدابها ، والمقارنة والموازنة فى تلك الأنواع بين دولة واخرى معاصرة وشعب وسواه فى نفس الزمن الخ الخ .

يلتقى المؤلف بهذه الجوانب المتعددة المذاهب واكثر منها عند محاولة الكتابة عن عصر معين . فكيف يكون الشأن حين يتعرض لجميع الجبهات او يطمع فى تأريخ كل أطوارها فى عصور

الناشر : دار النهضة العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ٥٥٤ ص ١٧×٢٤ سم • الثمن ٧٠ قرشا

تأليف : كورت زاكس



هى سلسلة من حلقات لا عـد لها ولا حصر ، حلقات اذا اهتدينا الى احد طرفيها شق علينا الاهتداء الى الطرف الآخر .

هذا هو اول ما نواجهه حين نتعرض لكتاب « تراث الموسيقى العالميـة » أو مختصر تاريخ الموسيقى فى العالم ، تأليف الأستاذ الدكتور كورث زاكس وترجمة الدكتورة سمحة الخولى ومراجعة وتقديم الدكتور حسين فوزى .

ونسأل انفسنا عن جدارة هذا الكتاب تأليفا وترجمة ومراجعة . فهل استوفت هذه الجوانب أصالتها وجاءت خليقة بمكانتها ووضع كل منها موضعه الصحيح اللائق ؟

حين أسأل نفسى هذا السؤال أجد جوابه عند مؤلف الكتاب الاستاذ الدكتور كورث زاكس فيما كان يرسم امامنا من اساليب البحث ويحدد لنا من المبادىء التى نعدها معالم الطريق فى دراسة كل مصنف . فقد كان من حظى أن اقضى أكثر من عشر سنوات تلميذا لهذا الاستاذ مراحل دراستى الموسيقية فى ألمانيا . وكان بالنسبة لى قائدا ورائدا . وكانت لنا منه نصائح وتوجيهات تتوالى بها اللقاءات والندوات التى كان يعقدها بين المحاضرات للخواص من طلابه . فكان مما وجهه الينا من تلك الارشادات أن واجبك الأول عندما يقع فى يدك مصنف جديد ان تطلع على موضوع الكتاب أولا ثم التعرف عليه من زاوية اهلية المؤلف وقدرته على التصدى للموضوع الذى احتواه الكتاب ، فلعل هذاالاطلاع وحده يكون كافيا لتوفير الوقت وعدم اضاعة الجهد وتشويش الفكر فى قراءة مثل هذا المصنف .

وطبقا لهذه القاعدة نعود لنسأل انفسنا مرة اخرى فيما يخص الكتاب الذى بين أيدينا من هذه النواحى كلها : هل توافرت فيه الوسائل التى تدل على ملاءمة مادته للجهود التى بذلت فيه من تأليف وترجمة ومراجعة ؟

ان الناشر لهذا الكتاب « دار النهضة العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر» يبدو كما لو كان يقرأ ما فى خاطرى حين قدم المشتركين فى هذا المصنف الى القراء فى أولى صحائفه . فقدم المؤلف كورث زاكس على انه « ولد ببرلين سنة ١٨٨١ وتوفى فى نيويورك سنة ١٩٥٩ . بدأ حياته العلمية دارسا لتاريخ الفن التشكيلى ثم تخصص فى الموسيقى فنا وصنعة وبحثا تاريخيا . فهو يعد من كبار علماء الموسيقى الألمان ... » .

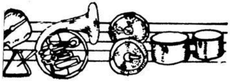
واضاف الدكتور حسين فوزى الى ذلك عن المؤلف فى تقديمه :

« قد يدهش القارىء عندما يعرف أن لهذا العالم اثرا فى حياتنا الموسيقية بمصر حتى قبل أن يجىء ، وزميله العلامة فون هورنبوستل ، ممثلين للرايخ الألمانى فى مؤتمر الموسيقى العربية الذى انعقد بالقاهرة عام ١٩٣٢ . فقد تتلمذ عليه ثلاثة انتفع المصريون بعلمهم وادراكهم وتعليمهم وهم على التوالى : الدكتور محمود أحمد الحفنى رائد التربية الموسيقية فى مصر ، وجهوده فى وزارة المعارف المصرية آتت خير الثمرات . والدكتورة بربجيت شيفر التى نشأت جيلا كاملا من بناتنا وأعدته لمهنة تعليم الموسيقى

بالاضافة الى ما قامت به من دراسة فلكورية لموسيقى واحة سيوة أسوة بما فعله بيلا بارطوك المجرى فى واحات الجزائر ثم الدكتور هانس هيكمان منشىء جماعة « الموزيكا ڤيڤا » بالقاهرة وقد وفق فى جهوده بين الحربين العالميتين لتهيئة جو جاد لتذوق الموسيقى وحسن الاستماع اليها.

طرق زاكس العلوم الموسيقية بدراسة آلاتها عند بعض الشعوب غير الأوربية . وعندما عهدت اليه جمهورية ڤيمار سنة ١٩١٩ برياسة مجموعة الآلات الموسيقية ببرلين عمل على دراستها وتقويمها الى درجة اعدادها للعزف ، وبذلك تم له وللناس فهم طريقة عملها . ثم أخذ فى تبويبها تبويبا علميا ، اشبه بما قام به العالم السويدى فى تصنيف الأحياء . ولكورت زاكس فى هذا الباب مؤلفات جذرية يعتمد عليها الباحثون فى تاريخ الآلات الموسيقية وصلاتها بالحضارات التى نشأت فيها ، سواء فى ذلك الحضارات النامية ، او مجرد الحياة البدائية . واشتغل زاكس استاذا لتاريخ الموسيقى بجامعة برلين — حيث تتلمذ عليه الحفنى وشيفكر وهيكمان . ثم غادر المانيا الى فرنسا ، ولبث فيها حتى سنة ١٩٣٩ ، وهاجر منها الى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنس هناك بالجنسية الأمريكية . وفى فرنسا والولايات المتحدة واصل البحث وتأليف الكتب ، واشرف فى فرنسا على اصدار مجموعة من الاسطوانات سجلت عليها نماذج من الموسيقى القديمة ، قام بعزفها المعاصرون فى ظروف اقرب الى ما كانت عليه فى زمانها ، حسب ارشادات زاكس وزملائه الفرنسيين المتخصصين فى دراسة الموسيقى الأوربية القديمة . وفى الولايات المتحدة الأمريكية عين أستاذا بجامعة نيويورك حتى سنة ١٩٥١ وانتقل بعدها الى جامعة كولومبيا. واشترك مع علامة المانى يعرفه المشتغلون بتاريخ الموسيقى العربية « اريك فون هورنبوستل » فى اصدار « التصنيف العلمى للآلات الموسيقية » .

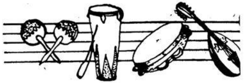
ومن كتب زاكس المشهورة : كتابه عن آلات الموسيقى الهندية والاندونيسية (١٩١٥) ، ومصر الفرعونية (١٩٢٠) وعن علم الآلات الموسيقية فى اوربا (١٩٢٠) . وانصرف فى شيخوخته الى اصدار كتب الثقافة العامة فى



الموسيقى وهى كتب جادة ، رائجة فى العالم (الانجلوسكسونى) ، اهمها كتابه المسمى « كمنولث الفن » و « نشأة الموسيقى فى العالم القديم » ثم الكتاب الذى نقدمه اليوم لترجمته».

واضيف الى ما تقدم ان الاستاذ زاكس كان من اكبر علماء الموسيقى واعظم اساتذتها فى كل من المدرسة العليا للموسيقى فى برلين وجامعة برلين وكلتاهما يختلفان كل الاختلاف فى طبيعة الدراسة ولون التعليم . فالمرحلة الأولى مرحلة عملية فى الاهم ، ومعاهدها معروفة عادة باسم الكونسرڤتورا » . اما الثانية فهى مرحلة جامعية دراساتها أكاديمية تتناول البحوث العلمية فى موضوعات التاريخ وعلم الموسيقى المقارن والفلسفة والآداب وعلوم الصوت الخ . وبين هاتين المرحلتين بون شاسع فى طبيعة الدراسة والتأهيل ، ولكل منهما اساتذته المختصون . وكان زاكس هو الأستاذ الوحيد المعترف به فى المرحلتين جميعا ويتسم بالتفرغ للأستاذية فى كل منهما . ذلك لانه فضلا عن غزارة علمه وسعة أفقه فقد كان متخصصا فى ألوان نادرة أهمها الآلات الموسيقية . ويكفى أن تعلم أن من بين مؤلفاته معجم ضخم مرتب على ابجدية الحروف الألمانية وموضحة به الآلات مصورة مع بيان تاريخها وصناعتها . وفى غاية الندرة أن تخطر بالبال آلة موسيقية لا تجدها مذكورة فى تضاعيف هذا المعجم . وما يروع القارىء فى اعجاز هذا المعجم أن كل آلة معنونة بلغة وطنها فتجد مثلا الآلة العربية باسمها العربى الى جانب الاسم الألمانى ، وقل مثل هذا فى الآلات الهندية والصينية وغيرها .

اما مترجمة الكتاب ، دكتورة سمحة الخولى فمما قدمها به الناشر « انها تخرجت فى المعهد العالى للتربية الموسيقية (بالقاهرة) عام ١٩٥١



ثم اوفدت فى بعثة الى الخارج لدراسة الموسيقى لمدة ثلاث سنوات حصلت على شهادة الأكاديمية الملكية للموسيقى بلندن وعلى درجة الدكتوراه من جامعة ادنبره فى تاريخ الموسيقى . اشتغلت بالتدريس بمعهد التربية الموسيقية للمعلمات ثم بالمعهد القومى العالى (الكونسر فاتوار) حيث تعمل الآن استاذة مساعدة للتاريخ والتحليل الموسيقى .. » .

ومما اضافه السيد المراجع فى التنويه بها « ان الدكتورة سمحة الخولى فى ترجمتها هذه تخطط للجيل الحاضر فى وضع اسس المصطلحات الموسيقية التى حشد بها كتاب كورت زاكس » .

وانه ليزيدنى غبطة ان اعزز اقوال الناشر والمراجع هذه بأنى وثيق المعرفة بالسيدة المترجمة، دكتوره سمحة الخولى ، أعرف مدى اجتهادها ونبوغها منذ كانت تلميذة لى بالمعهد العالى للتربية الموسيقية حيث كنت أقوم بتدريس تاريخ الموسيقى وبعض موادها النادرة ، فكانت هى فى الطليعة من نوابه الطالبات الممتازات واقدرهن على التحصيل والافادة . ثم جاء الوقت الذى عرفتها فيه بعد تخرجها زميلة فى بعض اللجان والمؤتمرات الموسيقية ، فكانت فى هذه المراحل جميعا تتسم بالدقة والكفاءة وعمق المعرفة .

ونأتى الى دور مراجع الكتاب الدكتور حسين فوزى ، وهو بالنسبة لى صديق الحياة كلها ، صبا وشبابا وكهولة ، وزميل دراسة اتفقت فى بدايتها وتشعبت فى اتجاهها بعد ذلك وان ظلت باقية على اتفاقها من حيث الاتجاه الفنى . فقد كان أول عهد تعارف به حين كنا زميلين بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وكان لنا فوق هذه الزمالة رابطة وثقها شغفنا بالموسيقى والتمثيل والأدب. ومازالت هذه الرابطة تنمو على الزمن وتزداد حتى التحقنا معا بمدرسة الطب بالقاهرة فى دراستنا العليا . ويشاء القدر ان يطغى الفن على سواه فى حياتى فانصرف عن الطب الى دراسة الموسيقى والتخصص فيها والانقطاع لها، بينما يمضى حسين فى دراسة الطب محتفظا بميوله وشغفه بالموسيقى . ومازال لى أقرب صديق واوفى رفيق .

لهذا فانى أرى من الخير لى ولأخى حسين فى اطراء كفاءته والثناء على الاعجاز فى مقدرته ان اكتفى باقتباس بعض ماقدمه به ناشر الكتاب:

« الدكتور حسين فوزى كاتب وأديب وموسيقى . وتخرج فى كلية الطب وبدأ حياته العملية طبيبا . كان منذ أوائل نشأته مشغوفا بالموسيقى والادب فعكف على اقراءة ما يصدر فى هذا المجال باللغة العربية فضلا عن الانجليزية والفرنسية . تعلم الموسيقى على معلمى الموسيقى العرب ، كما تعلم العزف على الفيولينة على يد معلم ايطالى من عازفى الأوبرا ، ثم على يد عازف مشهور من رجال اوبرا فيّنا .. اوفد فى بعثة الى فرنسا لدراسة الأحياء المائية فأتم هذه الدراسة بنجاح كما زاد من معلوماته الموسيقية والأدبية . وعند عودته عين مديرا لمعهد الأحياء المائية بالاسكندرية . وواصل الاهتمام بالموسيقى والادب . ولما انشئت جامعة الأسكندرية عين عميدا لكلية العلوم بها ثم وكيلا لتلك الجامعة .. وقع عليه الاختيار لتولى منصب وكيل وزارة الثقافة والارشاد عند انشاء هذه الوزارة فى بداية عهد الثورة . وهو الآن بالمعاش ، ولا ينقطع عن الكتابة فى وجوه الادب والموسيقى والاجتماع فى الصحف والمجلات . كما نشرت له طائفة من الكتب الادبية والفنية من بينها « الموسيقى السيمفونية » و « السندباد البحرى » .

وهكذا يتبين مما قدمت أن التوفيق كان حليف هذا الكتاب « تراث الموسيقى العالمية » تأليفا وترجمة ومراجعة ، بما اجتمع له من هذه الكفايات النادرة التى تكفل له الثقة العلمية والاطمئنان الى ما احتواه من المواد فى أسلوبه وصياغته وعلى الصورة التى ظهر فيها .

لقد صدر فى مادة التاريخ الموسيقى عشرات ومئات من المصنفات فى مختلف اللغات . فلاحاجة

اذن لاصدار كتاب جديد فى هذا الصدد اذا كان فى مادته مجرد تكرار لما سبقه من المصنفات ، ما لم يكن للكتاب الجديد طابعه الخاص وأسلوبه المعين وهدفه الذى يميزه عن سواه . واذا كان ثمة تصنيف جديد جدير بأن ينطبق عليه هذا الحكم فهو هذا الكتاب « تراث الموسيقى العالمية » الذى نقدمه الآن .

وقد يكون من اشد الصعوبات وضع مصنف يواجه مطالب الهواة على اختلاف درجات ثقافتهم والطلبة على تباين درجات تحصيلهم . فالبعض يجد فى الكتاب تزيدا فوق حاجته ، بينما يرى فيه الآخر ايجازا يود لو ان تفصيلا أكثر وايضاحا اوسع .

ولكن « كورت زاكس » مؤلف هذا الكتاب بحكم ممارسته الطويلة لمهنة التدريس ومعالجته للمشكلات التى يستعرضها مع طلبته العديدين على مختلف المراحل والدراسات ، جعل فى مقدرته وضع هذا الكتاب وتنسيقه وتبويبه واحكام مادته فى صورة تجعله موضع الرضا لدى جميع القراء على اختلاف اهوائهم وثقافتهم .

ومما يحمد عليه ان وجه عناية خاصة الى التراث الموسيقى فى مدنيات العصور القديمة والعصور الوسطى ، فوق بحوثها وكشف عن الكثير من غموضها . أما العصور الحديثة فانه لم يسهب القول فى سير الأعلام وذلك لعلمه بشهرتهم ويسر تناولها وكثرة من عالج الحديث عنهم ، ولكنه عنى بصفة خاصة باتجاهات هؤلاء الأعلام ومميزات انتاجهم ومدارسهم الفنية .

ومن أهم ما يذكر له بالثناء فى كل هذا انه لم ينس طبيعة المدرس حين الف هذا الكتاب ، فقد قدمه بعيدا عن التعقيد ، فمكن القارىء من استساغته وهضمه فى يسر وسهولة وقبول .

الكتاب

تقع الترجمة فى ٥٥٤ صفحة . والكتاب مقسم الى اثنين وعشرين فصلا ، نوجز الكلام عنها فيما يلى :

البدائيون

يعالج موضوع نشأة الموسيقى ، ويعرض النظريات المختلفة فيه . ويخلص الى « ان الحقيقة التى لابد من مواجهتها : ان على من يريد ان يعرف أصل الموسيقى ونشأتها الأولى أن يقرأها فى البقايا المتحجرة فى حياة البدائيين فى عصرنا هذا » .

ثم يعرف من هم البدائيون ، ويذكر خصائص الموسيقى البدائية وطبيعة آلاتها ، وبيان أن الغناء اقدم واسبق من الآلات مع ذكر صفات هذا الغناء وينتهى من هذا الفصل بقوله :

« ان ما يفرق بين الموسيقى البدائية والموسيقى الارقى منها انما هو طابع التكرار الملح ضمن القطعة الفردية دون نمو الى أى قمة ما ، وكذلك اعتمادها بصفة عامة على التقاليد اعتمادا جوهريا ، وانعدام التناول العقلى تماما ، سواء اكان ذلك فى شكل تدوين أم أى نظام نظرى مهما تكن صورته ».

الشرق

يوضح فيه المؤلف المناطق الجغرافية التى يشملها تعبير « الموسيقى الشرقية » ثم يذكر مميزاتها ، ووقوفها فى تطورها اذا قيس بالسرعة الهائلة التى تطورت بها الموسيقى الغربية فى الالف سنة الأخيرة موضحا ذلك باستعراض الموسيقى الصينية ثم الموسيقى الهندية وأخيرا موسيقى الشرق الأدنى .

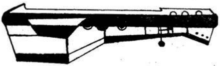
ثم يتناول فى اسهاب توضيح الاختلاف الأساسى بين درجات سلالم الموسيقى الشرقية والسلالم الغربية المعدلة ، مع ذكر نماذج لحنية ترتبط بالطريقة المتبعة فى التأليف ، ثم يتحدث عن الايقاع ، وعن التدوين فى المدنيات الشرقية الراقية ، ثم آلات الموسيقى الشرقية والتضمينات المرتبطة بالسحر والتى ترتبط ايضا ببعض هذه الآلات فى البلاد الشرقية المختلفة .

ويختتم هذا الفصل بقوله :

« ولكن لم يبق فى وعى المستمع الحديث من كل تلك التضمينات والارشادات الا النزر اليسير .

وقد تخلصت الموسيقى الشرقية تماما من المرحلة السحرية ونصف السحرية الى المرحلة الجمالية التى تهدف كل الألحان فيها ــ فيما عدا الألحان الدينية ــ الى الطرب فقط ولاشىء غيره،

وقد يكون الطرب الذى تخلعه تلك الموسيقى من نوع أقوى مما توحى به الموسيقى الى المستمع الغربى عادة . ويبدو أن القدر الأكبر من الموسيقى الشرقية يهدىء النفس ويدخل اليها الطمانينة ».



اليونان والرومان

أوضح المؤلف كيف كان الاغريق يعتقدون ان للموسيقى قوة سحرية شأنهم فى ذلك شأن العالم الشرقى ، وكيف فهموا منها بعد ذلك معنى خلقيا اكثر منه سحريا فأوجدوا علاقة نفسية وفسيولوجية مباشرة بين الموسيقى والشخصية . وكيف اعتبروا الموسيقى من أهم فروع التعليم . وارتباط الموسيقى بالدراما . واهتمام الاغريق بالموسيقى الغنائية . واعتماد موسيقاهم على اللحن والايقاع . واوضح فى اسهاب أنواع الجنس (التتراكورد) وهو الوحدة التى يبنى عليها اللحن عند اليونان ، وأوضح تعدد المقامات تبعا لطريقة ترتيب الابعاد داخل الجنس . ثم عالج مواضيع تعدد التصويت ، ثم الايقاع ، والآلات الموسيقية ، والتدوين .

ثم هو يقول فى نهاية هذا الفصل ان هذا ينطبق أيضا على الموسيقى فى روما فقد تقبل الرومان الموسيقى اليونانية بوعى منذ العصور السابقة على الميلاد وان كانوا قد أضافوا اليها بعض الآلات الحربية . ثم يختتم هذا الفصل بقوله :

« ولكن ينبغى الا تخدعنا الاصطلاحات اليونانية التى يشرح بها العلماء الرومان الموسيقى التى كانوا يسمعونها ، فشعب ايطاليا ذو المواهب العظيمة قد استخدم الموسيقى اليونانية المنحلة خلال خمسة قرون وليس من المعقول انه لم يضف اليها شيئا ايجابيا » .

مطلع العصور الوسطى حتى سنة ١٠٠٠ ميلادية

يقرر المؤلف فى هذا الفصل أن المنابع الرئيسية للموسيقى الكاثوليكية كامنة فى ألحان المعابد اليهودية ، وانه مازال هناك حتى اليوم تشابه كبير جدا بين ما يسمى « انغام المزامير » فى الكنيسة وبين الانشاد الدينى لليهود الشرقيين . ثم يقول : « ولا شك أن فى ارتجالات التسبيح الملهمة لم تكن لتخلق أسلوبا موسيقيا مسيحيا جديدا بل كانت اقتباسا لنماذج لحنية من البيئة المحيطة ، وأن من شهد الانفعالات الفياضة فى الاسبوع المقدس فى اشبيلية فى عصرنا هذا ليتأكد من ان الأناشيد الارتجالية التى تنطلق فى الشوارع أمام التماثيل المقدسة انما هى موسيقى اندلسية حقيقية ولاشىء غير ذلك » .

ثم يقول أن اللغة الموسيقية المشتركة لشرقى البحر المتوسط لتمثل مناطق واسعة أمكن للغناء المسيحى الأول أن يستمد منها خلاصته، وأن الموسيقى المسيحية القديمة كانت كلها غنائية . ثم يوضح أنواع الانشاد الكنسى . ثم يعالج موضوع التدوين الموسيقى فى مطلع العصور الوسطى ابتداء من القرن التاسع وهو تدوين كان مبنيا على الرموز والاشارات ، ثم يتحدث عن مقامات الكنيسة وعن المسرحيات الدينية .

وفى نهاية هذا الفصل يقول :

ان الموسيقى الدنيوية الأوربية لم تتبع اسلوب الكنيسة القائم على الأجناس والمقامات بل كانت أنغامها تسير على أساس الثالثات . ويذكر فى ختام هذا الفصل أن الهارمونية تعد الى حد ما امتدادا لنمو تلك السلاسل الثلاثية و « ان التناوب المعتاد فى الهارمونية الغربية بين تآلف الأساس وتآلف الدرجة الخامسة قد مهد له فى العصور الوسطى باستعمال نفس السلاسل من الثالثات بالتناوب أيضا ولكن فى سياق ميلودى » .

عصر الرومانسيك

١٠٠٠ م — ١١٥٠ م

هذا الفصل امتداد للحديث عن الموسيقى الكنسية الكاثوليكية ، فيصف اقسام القداس ويذكر اهم المؤلفين لهذه الألحان الدينية . ثم يتكلم عن الغناء الصولفائى وجيدو الأريزى . ويبين حكمة استخدام نظريات العصور الوسطى

للهكساكوردات ، كما هى الحال فى مقامات الكنيسة ، بدلا من الأوكتافات . ثم يتحدث عن التدوين البوليفونى وتطوره .

العصر القوطى الأول والوسيط

١١٥٠ – ١٣٠٠

يتناول الحديث فى هذا الفصل عن التروبادور والتروفير وأثرهما فى الشعر والالحان ويبين اقسام اغانيهم . ثم يتكلم عن الصيغ الموسيقية للأغانى الدنيوية فى فرنسا . وينتقل الى الحديث عن سنجر فى المانيا واهم مؤلفيهم ، وعن الشعراء المغنين الذين يتولون عزف الآلات فى مصاحبة الرقص . ثم يتكلم عن تعدد موسيقى الآلات وعن التدوين المحدود الزمن والانتقال من البوليفونية الحرة الى البوليفونية المحددة . ثم هو يوضح اختلاف اغلب تلك الصيغ البوليفونية عن البوليفونية الحديثة .

ويختتم هذا الفصل بالحديث عن التغييرات الحاسمة فى السلم الموسيقى فى القرون الوسطى وما بعدها ، ويشير الى أن القرن الثالث عشر حقق اقدم أنواع السلم المعدل .

العصر القوطى المتأخر

١٣٠٠ – ١٤٠٠

حدث فى أوربا تغيير هام اذ ضعفت سلطة الكنيسة وسلطة الامبراطورية الرومانية المقدسة، واتجهت الفنون لاظهار حقائق الحياة الدنيا فظهرت الأغانى الدنيوية برقصاتها جنبا الى جنب مع الانشاد الكنسى الوقور . وكرهت الكنيسة هذا الوضع . وغزت البوليفونية كل مجالات الموسيقى . ثم يذكر المؤلف الصيغ الدنيوية الشعبية الفرنسية والايطالية واهم مؤلفى ذلك العصر . ثم يتحدث عن موسيقى الآلات التى تكاد تكون مقصورة على الحان الرقص ، وعن تطور صناعة الآلات ، وظهور الفن الجديد ، وتطور التدوين الموسيقى ، ووقوف الايقاع الثنائى جنبا الى جنب مع الايقاع الثلاثى المعترف به وحده فى العصر السالف . ثم يتكلم عن افانين المدرسة الفلمنكية وعن الموسيقى الوهمية او المزيفة وأثرها فى الموسيقى الكنسية .

عصر دوفاى

١٤٠٠ – ١٤٦٠

بدأ هذا الفصل بالحديث عن الموسيقار البريطانى دانستابل وأثره ومميزات انتاجه ، ثم عن بدء ظهور عصر النهضة بالنسبة للموسيقى وغيرها من الفنون . ثم يستعرض حياة بنشوا ودوفاى البرجنديين موضحا طابع انتاجهما وتأثر الالحان الدينية بالموسيقى الأكثر شعبية ، ثم تقدم التدوين والآلات الموسيقية .

عصر اوكجيم

١٤٦٠ – ١٥٠٠

يشير فى هذا الفصل الى الرجوع الذى اعترض التيارات الكلاسيكية لعصر النهضة الموسيقية والفنون ، والاهتمام بالاحساس والحركة والارتداد الى الولع بالطرافة والعجلة . وتقف ضد هذا التيار الرجعى المدرسة الفلمنكية بزعامة أوكجيم احد تلاميذ دوفاى وقد تطور بالأسلوب البوليفونى فى مؤلفاته الدينية والدنيوية . وكان من اهم معاصريه اوبريخت الهولندى . وقد ظهر فى مؤلفاتهما تغلب المفهوم الهارمونى الحديث على المفهوم الكونترابنطى القديم . ثم يظهر فى منتصف القرن الخامس عشر الفنان الألمانى هنرى فينك فيقدم مجموعات من الأغانى الألمانية ذات الأسلوب البوليفونى المبتكر ، كما يؤلف كثيرا من المقطوعات الأخرى التى يساير فيها الأسلوب الفلمنكى الحديث ..

ثم تظهر فى ألمانيا جماعات المايستر زنجر (أساطين الغناء) رمزا لتحول الحياة الروحية من الفروسية المنحلة الى أرباب الحرف فى المدن والعواصم فبعثوا فى الفن حياة جديدة استمر ازدهارها على أيديهم قرنا ونصف قرن . وابرز شخصية فى هذه الجماعة شخصية صانع الأحذية هانز زاكس فى نورمبرج ..

وقد ظهر فى هذا العصر تغيير كبير فى لوحات آلات المفاتيح ، وتطورت الموسيقى الآلية الى حد كبير ، كما ابتعد التدوين الموسيقى بسرعة متزايدة عن ملامح تدوين العصور الوسطى . ثم يستعرض المؤلف عدة لوحات من نماذج تطور هذا التدوين

من القرن الثانى عشر الى أواخر القرن السادس عشر . ثم يشير فى نهاية الفصل الى اختراع الطباعة الموسيقية حين ظهرت أولى هذه المحاولات بايطاليا فى نهاية القرن الخامس عشر مما ساعد الموسيقى على دخولها فى مرحلة جديدة من مراحل التطور .

عصر جوسكان

١٥٠٠ ـ ١٥٣٠

يتناول هذا الفصل الحديث عن عصر النهضة المتأخرة فى مرحلتها الأولى ، وهى مرحلة هادئة متحفظة تسودها قوانين البساطة والنظام، وعن جوسكان زعيم هذه المرحلة وأعماله من الاغانى والمزامير والقداسات والموتيتات ، وان جيل هذا العصر « بدأ يخلق پوليفونية بالمعنى الحديث ، اى ان كل قطعة منها متكاملة ، تعتبر الاصوات المكونة لها عناصر ليس لها معنى مستقل أو حياة خاصة بها » . ثم يتكلم عن هنريك أو هنرى اسحاق أقرب الفنانين لجوسكان ، وعن كومبير تلميذ أوكيم .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى معالجة الصيغ الايطالية فى ذلك العصر ، والكورال البروتستانتى، والكانتوريات وهى نواد للغناء الدينى ، واهتمام المدرسة الالمانية الثانوية بالموسيقى والغناء . ثم يشير الى توالى ابتكار صيغ الموسيقى الآلية المستقلة عن صيغ الموسيقى الغنائية ، وبيان الدور المهم الذى لعبه العود واستعمال عفقات مزدوجة فى آن واحد فى العزف عليه ، واختراع التدوين الجدولى الذى تدون به مقطوعات العود وتنوعه فى الدول المختلفة . ثم يورد الحديث عن آلة الأرغن واستمرار تطورها بسرعة هائلة ، وكذلك الآلات الوترية ذات القوس واستقرارها فى أسرتين رئيسيتين ، وابتداع طرق جديدة فى طباعة الموسيقى .

عصر جومبير وفيلرت

١٥٣٠ ـ ١٥٦٤

يعتبر هذا العصر المرحلة الثانية للنهضة المتأخرة التى تنهى عصر جوسكان وتتطلع من جديد الى الانفعال والتدفق والحياة . وكانت الشخصية البارزة فى هذه الاتجاهات الجديدة شخصية جومبير ، ويعالج المؤلف الحديث عن مؤلفاته . ثم يستعرض أهم الشخصيات التى برزت فى الموسيقى الدينية فى انجلترا ، وما طرا من التغيير فى ميدان الموسيقى الدنيوية واغانى الموتيت والشانسون ذات الطابع الوصفى وتطور المادريجال وتغير أسلوبه فى التأليف تحت قيادة الفلمنكيين فى ايطاليا ، وما استحدثه الايطاليون من انواع فى الغناء الشعبى عارضوا بها المادريجال . ثم يتحدث المؤلف عن الموسيقى المتحفظة وما طرا على الموسيقى الغنائية من تغيرات جوهرية فى العلاقة بين النص واللحن . ثم يتناول موسيقى الآلات والصيغ الجديدة التى ظهرت فيها ، وتطور موسيقى الرقص تطورا حاسما ينزع الى المرح والنشاط ، والاهتمام بوضع ميتودات لعزف كل نوع من الآلات . واختتم هذا الفصل بالحديث عن جلاريانوس وتسارلينو حيث « وصلت الموسيقى الى نقطة تحول اخذ فيها المفهوم الكونترابنطى يفسح الطريق للمفهوم الهارمونى ، واخذت مقامات الكنيسة تتوارى امام المقامين الكبير (ماچير) والصغير (مينير) الحديثين » .

عصر پالسترينا ولاسوس

١٥٦٤ ـ ١٦٠٠

يستهل المؤلف هذا الفصل بالاشارة الى شواهد بداية عصر الباروك فى سائر الفنون . ثم يورد حياة پالسترينا ومدى نشاطه فى الانشاد الكنيسى وصيغ الموسيقى الدينية ، ثم المقارنة بينه وبين أورلاندو دى لاسو القطب المعاصر له والذى كان « رجل دنيا تفيض قريحته المتدفقة بكل ما عرفت الموسيقى من صيغ واشكال » . ثم يتحدث عن كتب المزامير والحانها واختلاف طرق ادائها ، والتحيز ضد البوليفونية وتعقيدها فى الموسيقى الدينية بصفة خاصة وما ظهر فيما بعد من « رد مماثل فى مجال الموسيقى الدنيوية وهو الذى تبلور فى المفاهيم الايطالية الى ما يعرف بالكانزونتا والباللينو والمادريجال المنفرد وغناء الريستاتيف المونودى » . ثم أبان كيف كان لزاما على الثورة الموسيقية التى بدت مظاهرها فى نشأة الغناء المنفرد وفى الريستاتيف وفى الاسلوب المونودى « كان لزاما عليها ان تخلق الباص المستمر

كدعامة أساسية داخلية للتركيب والبنـــاء الموسيقى » . ثم يشير الى ما وصل اليه التدوين فى الكتابة الخطية وفى الطباعة .

عصر مونتفردى وشوتز
١٦٠٠ — ١٦٣٠

يتناول هذا الفصل الحـديث عن الأسلوب التصويرى الذى تطور عن الريستاتيف فى مستهل القرن الســابع عشر وكيف « أصبح المؤلف الموسيقى أخيرا فى وضع يسمح له بالاســتجابة لمطالب المذهب الانسانى دون قيد » ، ثم يتحدث عن العلاقة بين الكلمة وبين الموسيقى ، وعن نشأة الأوبـرا وما وضـــع من الأوبرات الأولى . ويسرد حيـاة مونتفردى وأعمـاله ومكانتـــه فى التـــاريخ واشـــتراكه فى الحركة الثورية لعصر الباروك الناشىء . ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن جزوالدو « الذى لم يختتم فترة المادريجال المفرق فى التأنق فحسب ، بل اختتم عصر تأليف المادريجال كله » ، ثم ظهـور روح جديد يمكن اعتباره الخطوة الأولى فى فن التوزيع الأوركسترالى وما تبع ذلك من تغيير شامل فى الآلات الموسيقية . ثم يتحدث عن موســيقى الآلات وظهور اصطلاحات سمفونية وصونـاتة ، « ويرجع تاريخ ترقيم المؤلفات الموسـيقية الى ذلك الجيل » . ثم يورد حياة شوبرت أعظم المؤلفين الألمـان فى ذلك العصر وانتاجه الموسيقى وكذلك معاصريه شـــاين وشـايدت واثر هؤلاء الألمان الثلاثة فى تطوير الفرق الموسيقية ، والدور الهام الذى لعبه الأخيران فى تاريخ المتتابعـــات الموسيقية (السويت) .

عصر كاريسيمى
١٦٣٠ — ١٦٧٠

يستهل هذا الفصل بالحـديث عن تطور الأوبرا فى ايطاليا وكيف « اخذ الأسلوب اللحنى يدعم صــيغة الآريا المتكاملة ، واتجه غنــاء الريستاتيف الى تقليد الكلام .. وتخـلى عن مطامعه الميلودية » . ثم يؤرخ للأوبرا الفينسيانية التى بلغت أوجها فى مؤلفـات كافالى وتشستى مع ذكر ترجمة هذين العلمين . ثم يتحدث عن الكانتاته والاوراتوريو ، وكيف بدىء فى تطعيم الصيغة الدينية للاوراتوريو بفن الأوبرا الدنيوية . ولكن كاريسيمى عازف الأرغن ورئيس الموسيقى فى احدى كنائس روما لمدة تقرب من ثلاثين عاماً تدخل فوضع حدا نهائيا للتطور المسرحى فى هذه الناحية ، ووضع أساس الأوراتوريو فى صـورته التى عرفت بعــد ذلك . ثم يأتى الحـديث عن الكانتاته ، كيف نشأت وكيف تطورت ، وكيف كان الفضل لكاريسيمى فى الارتقاء بها . ثم يتحدث عن الكورال واسلوب تعدده ، وعن الأغانى الألمانية والانجليزية ، وعن موســيقى الآلات والتحمس العلمي الجديد لتأليف الكتب ، وتقـــدم الآلات بسرعة كبيرة مع الاشارة الى مشاهير العازفين .

عصر لوللى وپرسل
١٦٧٠ — ١٧١٠

يبدأ هذا الفصل بالاشارة الى أن « الجزء الأخير من القرن السابع عشر كان وقفـــا على الايطـــاليين والفرنسيين والانجليز حيث بدأ الفرنسيون يصدرون عازفى الأوركسترا فى حين كان الايطاليون يصدرون مؤلفيهــم وقوادهــم ومغنيهم الى كل بلاطات اوربا » . ثم يتكلم عن الأوبرا الايطالية وكيف فقد الريستاتيف طابعــه بالتدريج ، وكيف اصبحت الآريا سيدة الموقف ، والاهتمام بالألحان الغنائية المكتملة الحـــافلة بالزخارف والبعيدة عن الطابع الدرامى ، وتحول مركز الثقل الى الجمال الحسى والى المهـــارة الاكروباتية للصوت فى الغناء ، وكيف احتــل الانجليز مكانة مرموقة فى هذا الميدان بفضــل مؤلفهم پرسل . ثم أشـــار المؤلف الى تخلف الاوبرا الألمانية والفرنسية ، ثم الى تطور الأوبرا فى فرنسا بعد ذلك بفضل لوللى وقد اورد حياته واعماله وطابع اوبراته . ثم عرض لأهم رقصات ذلك العصر فتحدث عن رقصة المنيويتووالسويت وكيف كانت مستودعا للرقصات مع ذكر المبع المؤلفين الموسيقيين فى ذلك العصر ، ثم ازدهار الموسيقى الوصفية فى ألمانيا وفرنسا ، والتغييرات الحاسمة التى تعرضت لها الآلات الموسيقية والتدوين الموسيقى واستعمال الحليات وانواعها فيــه .

عصر باخ ورامو
١٧١٠ — ١٧٥٠

خصص هذا الفصل للحديث عن هينـدل وبـاخ الألمــانبين وسـكارلاتى الايطـالى ورامو

الفرنسى ، هؤلاء الأعلام اختتموا الماضى ومهدوا للمستقبل . وقد استعرض المؤلف حياة كل منهم وآثره ، وتخلل ذلك الحديث عن الأوبرا الجادة والأوبرا بوفا والأوبرا الهزلية الايطالية والأوبرا كوميك التى ابتدعها الفرنسيون ، والبالاد أوبرا واوبرا الشحاذ الانجليزية وأشهر مؤلفى هذه الأنواع . وقد ذكر تطور أساليب التأليف فى ذلك العصر وظهور البوادر الأولى للأسلوب الانفعالى الجديد ، وان هذه النزعة العاطفية نفسها هى التى أدت فى العصر التالى الى ايجاد أسلوب وجدانى رقيق حقا . ويشير الى أن أهم واخصب اختراع لذلك العصر هو آلة الجرافيسمبالو « ولقد اختصر الاسم المعقد لتلك الآلة فيما بعد الى مجرد بيانو فورتا أو فورتا بيانو او حتى بيانو فقط » .

ونشأ النقد الموسيقى كمهنة مستقلة ، وظهور مقالات النقد كان بداية أولية فى سبيل اصدار مجلات موسيقية . ثم تنظيم الحفلات الموسيقية العامة . وتغير بعض الآلات الوترية وآلات النفخ تغييرا كبيرا .

عصر هايدن وموتسارت

١٧٥٠ — ١٧٩١

بعد موت سباستيان باخ أصبحت شعارات الفنانين الطبيعة والبساطة والانفعال . وقد تجلت هذه الشعارات الثلاثة فى ميدان الأوبرا فى اصلاح جلوك ، ويستعرض المؤلف حياة جلوك واوبرات الاصلاح التى كتبها . ثم يشير الى الدور الخطير الذى لعبه روسو وخلفاؤه فى حياة الأوبرا كوميك ، ثم نشاط الألمان فى تلحين الأوبرا كوميك الألمانية التى يسمونها « زنجشبيل » والحب العميق الألمانى لأغانى « الليدر » ، ثم التطور الكبير الذى قام به أثنان من أولاد باخ هما كارل فيليب عمانويل ويوهان كريستيان وقد استعرض المؤلف أعمال كل منهما وآثرها فى انتاج معاصريهما « وان ابنى باخ الاثنين ليمثلان عصرا كان يسعى لا ليكون بسيطا وطبيعيا فحسب ، بل كذلك الى أن يظهر مشاعر والفعالات كانت قبل ذلك بقليل محتجزة متحفظة او كانت توجه فى عبث وخفة بعيدا عن مجراها » . ثم يتحدث عن الاهتمام بالهاربسيكورد والكلافيكورد والبيانو بصوره المختلفة وكيف « اخذت مؤلفات البيانو وغيرها من الصيغ الآلية الأخرى تغزو آفاقا لم تكن تخطر بالبال من قبل » . ثم يستعرض سيرة هايدن وأعماله وأسلوبه فى التأليف . وينتقل بعدها الى موتسارت الذى « يقود هذا العصر اللامع الى قمته » . ويسترسل فى ذكر حياة هذا الفنان ومصنفاته من أوبرات وكانتات وسمفونيات وتيراندات وموسيقى منزلية وصوناتات واغانى ليدر وقداسات الخ . ويختتم هذا الفصل بقوله عن موتسارت انه .

« قد وفق تماما بين الجمال والشخصية وبين التراجيديا والكوميديا وبين الدراما والموسيقى وبين الأصوات والآلات وبين اللحن والكونترابنط . ففى لحظة سعيدة موفقة من لحظات التاريخ خلع عليه القدر قدرة فريدة على التعادل التامبين كل عناصر الأسلوب الموسيقى » .

عصر بيتهوفن وشوبرت

١٧٩١ — ١٨٢٨

يستهل هذا الفصل بالقول انه « حين قامت الثورة الفرنسية كانت الفنون فى سائر بلاد الغرب تتحول الى الكلاسيكية الصارمة » . ثم يأتى على حياة بيتهوفن ويشير الى عدم تقيده بأية وظيفة فى البلاط او فى الكنيسة مما جعله غير مجبر كغيره من خيرة الموسيقيين على تأليف موسيقى روتينية للاستهلاك اليومى سرعان ما يطويها النسيان فى أغلب الحالات ، انما كان بيتهوفن ينتظر حتى يأتيه الالهام مما ترتب عليه قلة ما خلفه من المؤلفات بالنسبة لغيره من المؤلفين . ثم يعقد المؤلف فى ذلك مقارنة عددية فى هذه المؤلفات بين بيتهوفن وموتسارت الذى كان أقصر أجلا منه بكثير . ثم يقول الا ان الطريقة الفردية الشخصية فى الخلق الفنى كانت تتملك بيتهوفن بما قربه من طابع الرومانتيكية «بيتهوفن كفنان كلاسيكى لم يسمح لأى مفهوم خارج عن الموسيقى بأن يعوق المنطق الداخلى للموسيقى». ثم يشير الى تقسيم حياة بيتهوفن الى فترات ثلاث : فترة التحصيل والاعداد ثم فترة النضج واخيرا فترة الاكتمال ، ثم يأتى على ذكر مؤلفاته فى كل منها . ويقرر أن الاجماع منعقد على أن « عظمة بيتهوفن تتجلى فى موسيقى الآلات فى كل صيغها على السواء » . ثم ينتقل الى الحديث عن حالة الأوبرا فى فرنسا فى ذلك العصر ذاكرا بعض

أعلام مؤلفيها ، وقد عقد فى ذلك مقارنة سريعة بينها وبين الأوبرا الايطالية والأوبرا الالمانية . ثم يتحدث عن شوبرت « أول وأعظم مؤلف رومانتيكى خارج نطاق الأوبرا » مستعرضا حياته وانتاجه الضخم من الأغنيات (ليدر) والسمفونيات والموسيقى المنزلية والأوبرا والموسيقى المصاحبة للأعمال المسرحية ومؤلفات عديدة كنسية ماتزال خالدة . ثم يشير المؤلف الى شغف الموسيقيين المتزايد فى ذلك العصر بالقوة والضخامة فى الصوت ويرجع ذلك الى عدة عوامل . وقد كانت الآلات الموسيقية صورة لهذا الاتجاه ويشرح ذلك شرحا مستفيضا فى جميع أنواع الآلات ، حتى ما كان خاصا منها بضبط السرعة (التمبو) مثل المترونوم وعصا قائد الأوركسترا .

عصر مندلسون وبرليوز
١٨٢٨ — ١٨٥٤

استهل هذا الفصل بالقول « اذا كنا نؤرخ بداية هذا العصر بعام ١٨٢٨ فليس ذلك لأنه تاريخ وفاة شوبرت أو تاريخ نشر المصنف الأول لبرليوز فحسب ، بل لأنه كذلك تاريخ العام الذى قدم فيه أوبير للمرة الأولى نوعا لم يسبقه اليه احد من « الأوبرا الفخمة » وبذلك جعل باريس تستعيد مكانتها كمركز للحياة الموسيقية فى أوربا » . ثم يشرح مفهوم الأوبرا الفخمة وكيف كان نجاح هذا المفهوم الجديد وتأثيره على روسينى الايطالى ثم على مايربير الألمانى الذى رفع هذا الأسلوب الى ذروته، ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن مندلسون فيروى سيرته وأعماله ويسترسل فى ذلك فيقول « ولعل أكثر مؤلفاته العديدة ذيوعا أغانيه الكورالية القصيرة التى تعيش الآن فى كنائس كثيرة متفرقة فى كل مكان » . ثم يتحدث عن أول جمعية للغناء الكورالى فى مدينة برلين وكيف حذت المدن الأخرى حذوها . ثم يستعرض حياة برليوز وأعماله ، وكذلك كل من شوبان وشومان . ويختتم هذا الفصل ببيان ما أدخل فى هذه الفترة من التطور الضخم فى بعض الآلات .

عصر فاجنر وبرامز
١٨٥٤ — ١٨٨٦

يقول أن الفنانين فى تلك الفترة قد اندفعوا اندفاعا وراء مبادىء تكاد تكون متضاربة ولكنهم جميعا « اتحدوا فى صفة واحدة هى العنف والعمق والتعبير والجدية التى تبتعد تماما عن روح الدعابة فى خلو بال واطمئنان ساذج » ثم يستعرض حياة ڤاجنر وكيف انتقل فى مؤلفاته من طراز « الأوبرا الفخمة » الى التطور الدرامى ، ثم أخذ يعدد أوبراته واحدة واحدة واصفا اياها فى موازنة



ومقارنة . « واوركسترا ڤاجنر غنى حافل قوى التعبير بصورة لا نظير لها من قبل » . ثم ينتقل المؤلف فيتحدث عن الأوبرا الفرنسية فى ذلك العصر ويصف أعمال امبرواز توما وجونو وبيزيه وسان صانس وشابرييه وماسنيه ثم يذكر بعض أوبرات سميتانا رائد الموسيقى التشيكية وموسورسكى المؤلف السلافى . « وبينما خلق كل واحد من هؤلاء الفنانين أوبرا واحدة ناجحة وظلوا يشغلون مكانا ثانويا بالمقارنة بانتاج ڤاجنر الطاغى ، كان هناك رجل واحد عدل الكفة أمام قوة بايرويت وقدم سلسلة متتابعة من الأوبرات الناجحة فى أسلوب مضاد ، هو جوزيبى ڤردى » . ويستعرض المؤلف حياة ڤردى وأعماله . ثم يتحدث عن بدء الأوبريت فى باريس وڤيينا وانجلترا وأمريكا مع ذكر أعلام مؤلفيها فى هذه البلاد . ثم ينتقل الى الحديث عن الفن السمفونى وتطور صيغ الموسيقى الأوركسترالية فيشير الى حياة وأعمال كل من الفنانين فرانس ليست وبروكنر وبرامس وسيزار فرانك وسان صانس وفوريه . ثم يقول « بينما بلغت ألمانيا وايطاليا وفرنسا قمة احتكارها الموسيقى المشترك ظهرت فى الأفق مجموعة جديدة احتلت مكانا ممتازا على المسارح

وفى قاعات الموسيقى فى الغرب تلك هى مجموعة الشعوب السلافية » . ثم يمضى المؤلف فيذكر من الفنانين التشيكيين سميتانا ودڤورچاك وياناتشيك ، ومن الروسيين المجموعة التىعرفت باسم « الخمسة الأشداء » وهم بورودين وكوى وموسورسكى وبالاكيريف ورمسكى كورساكوف ، ثم تشايكوفسكى . وينتهى بالاشارة ايضا الى اعلام النرويج فيذكر جريج واعماله واثره فى التأليف .

عصر ديبوسى وشتراوس
١٨٨٦ – ١٩٢٢

« فى مطلع القرن الجديد تضاربت الرومانتيكية المتأخرة مع عدد كبير من التيارات المناهضة للرومانتيكية » . ويقدم المؤلف ادوارد الجار الانجليزى بوصفه أحد آباء تلك التيارات هو ومعاصره ماكداول الأمريكى . ثم يذكر أن « مالر كان الممثل الحقيقى للرومانتيكية المتأخرة ، فاتم تسع سمفونيات كما ترك فى عالم الغناء عددا من الأغانى الجميلة باصطحاب البيانو » . وكذلك احتل معاصره ڤولف بالنسبة للأغنية نفس مكانة ڤاجنر بالنسبة للأوبرا . ثم كان نيلسن أول مؤلفى الدانيمارك المحدثين وسيبليوس الفنلندى آخر فنانى تلك المجموعة .

ثم يتحدث المؤلف عن أسلوب الواقعية فيقول انه اسلوب درامى جديد أوجدته جماعة ايطالية طبيعية النزعة وعماده القصص الواقعية المستمدة من الحياة اليومية ، ويمثل لهذا الأسلوب باوپرا الفروسية الريفية لماسكانى والبلياتشوات لليونكافالو ، ثم يقول ان معاصرهما بوتشينى اقترب من الواقعية فى اوپراته المبكرة ولكن اوپراته المتأخرة كانت مختلفة . « ولقد وجد الواقعيون الايطاليون فى جوستاف شارپنتيية اخا فى الكفاح » ومناهضة النزعة الڤاجنرية .

ثم ينتقل المؤلف الى الكلام عن التأثيرية وهى اخطر وأهم التيارات المضادة للرومانتيكية ، كما انها مناهضة فى جوهرها للكلاسيكية ايضا . ويتحدث عن ديبوسى حامل لواء التأثيرية الموسيقية ، ثم عن راڤيل بوصفه اوثق أبناء الجيل الذى ولد حوالى ١٨٧٥ صلة بديبوسى . ويشرح التأثيرية فى انتاج رسبيچى فى ايطاليا وسيريل سكوت فى انجلترا ودى فايا فى اسپانيا.

الا ان العنصر التأثيرى فى موسيقى هؤلاء الفنانين ضعيف جدا » . ومثل هذا الحكم ينطبق كذلك على شارلز آيفز الأمريكى ورحمانينوف وسكريابين الروسيين .

ثم يتحدث عن المذهب التعبيرى وهو آخر مراحل ما بعد الرومانتيكية . والتعبيرية فى مفهوم المؤلف « تحاول أن تعطى شكلا خارجيا لتجارب نفسية داخلية » . وقد ظهرت الموسيقىالتعبيرية على يد شونبرج ، وكان ڤوتسيك أعظم أتباعه . ويتحدث عن المؤلف الالمانى ماكس ريجر أحد الشاردين من الرومانتيكيين المتأخرين والذى « سار فى طريقه الخاص ، وهو طريق غير تعبيرى ولا تأثيرى » .

ثم ينتقل الى الحديث عن ريشارد شتراوس فيصفه بأنه « أبرز من هؤلاء الفنانين جميعا وابعد اثرا . فهو قد حاول ان يصل بالرومانتيكية الى منتهاها وان يجد فى الوقت نفسه طريقا للمستقبل ، ولذلك تبنى اغلب الاتجاهات السائدة فى عصره » . ويتناول سرد حياته واعماله . ثم يتحدث عن بارتوك وسترافنسكى اللذين لم تكن فيهما قطرة من الرومانتيكية واتجها نحو « كونترابنط جرىء » . ويأتى بعد ذلك على ذكر طائفة من أعلام المؤلفين أبناء ذلك الجيل فى مختلف البلاد مع بيان أعمالهم وأثر كل منهم .

ويختتم هذا الفصل بالحديث عن النزعة الفلكلورية ، ثم النزعة الحوشية وارتباطها بالمذهب المستقبلى ، ويقول ان هاتين النزعتين فى الواقع متضادتان تماما رغم ما بينها من تشابه .

عصر شونبرج وسترافنسكى
١٩٢٢ – ١٩٥٤

عالج المؤلف فى هذا الفصل محاولة طائفة من الفنانين الملاءمة بين احتياجات جماهير المستمعين غير المتخصصين المحدودة بطبيعتها وبين الموسيقى الفنية . وذكر أن من بين زعماء هذه الطائفة المؤلف الانجليزى ويليامز والمؤلف الألمانى ڤايل ، كما ساهم فيها بانتاجه هندميت وبروكفييف وشونبرج وسترافنسكى .

وقد « وجدت محاولات تقريب الشقة بين المؤلف والمستمع حليفا قويا فى الحاكى (الفونوغراف) الذى حرر الموسيقى تحريرا

كاملا من الامكانيات المحدودة لارتياد حفلات الموسيقى » . ثم ياتى على ذكر مراحل تطور الحاكى . ويقرر أنه لم تظهر فى الآلات الموسيقية حديثا تجديدات تاريخية هامة .

ثم يتناول الفنانين الثلاثة شونبرج وبارتوك وسترافنسكى فى حديث مطول موضحا أثر كل منهم . ثم يقول ان جميع أبناء الجيل الذى ولد حوالى عام ١٨٩٠ مر بعملية التحول ويذكر منهم المؤلف الروسى بروكوفييف والمؤلف التشيكى مارتينو والمؤلف الفرنسى هونيجير والمؤلف الالمانى هندميت وقد اوضح أعماله تفصيلا ، واقرب معاصريه اليه كارل اورف ، وطائفة من فنانى امريكا .

ثم يختتم هذا الفصل بعرض سريع للفنانين الذين ولدوا حوالى عام ١٩١٠ فيذكر من بينهم المؤلف الروسى شوستاكوفتش والمؤلف الفرنسى اوليفييه والمؤلف الانجليزى بريتن والمؤلف الايطالى مينوتى والمؤلفين الأمريكيين شومان وباربر .

وفى ختام كتابه يقول :

« اننى اذ أختتم الطبعة الثانية من كتابى هذا مضطرا الى الاعتراف بشىء من الجزع ـ ان الموسيقيين الذين كانوا بالأمس محدثين قد أصبحوا اليوم من القدامى ، وان أبناء الجيل الصاعد الذين ولدوا فى هذا القرن قد نضجوا اليوم ببلوغهم الاربعين والخمسين وأن من العسير تحديد مكانهم فى عالم الموسيقى .. » .

وبعد ، فانى لا أستطيع أن أزعم أنى قدمت تلخيص هذا الكتاب على الوجه الأكمل ، اذ انه من غير الممكن تلخيص مثل هذا المصنف الضخم فى مثل هذا الحيز المحدود من الصفحات . انما الذى أستطيع أن أؤكده أنى قد أعطيت القارىء صورة تامة لمدى الجهد الذى بذله المؤلف فى تصنيف هذا الكتاب القيم ، ومدى الجهد الذى بذله كل من المترجمة والمراجع .

والكتاب بلا ريب ثروة فنية للمكتبة العربية ، وجدير بالقراءة والاقتناء .

الدكتور محمود أحمد الحفنى

تاريخ



• ترجمة : دكتور مهندس أنور محمود عبد الواحد

• مراجعة : دكتور حسن السبايجى

منذ ان وجد الانسان على سطح هذه البسيطة وهو يكافح للمحافظة على حياته والابقاء على نوعه . وتاريخه الطويل يدل على سلسلة الجهود الطويلة التى بذلها فى البحث والتنقيب عن الوسائل او الاختراعات التى تؤدى الى التقليل من متاعبه والزيادة من راحته أو رفاهيته ...

وكانت قيمة أى اختراع يظهر فى أى عصر هى فى الواقع قيمة نسبية اى كانت تقاس هذه القيمة بمدى تأثير ذلك الاختراع على نفسية الانسان الذى يعيش فى ذلك العصر ومدى حاجته اليه ... فمثلا لا يهتم رجل الشارع الآن عندما يسمع عن طائرة تسير بسرعة الصوت بمثل ما كان الحال منذ ١٥٠ سنة مثلا عندما ظهرت الآلة الجارية (الدراجة) التى تسير بسرعة الحصان ...

الاختـراع

تأليف

إيجون لارسن

الناشر: مؤسسة سجل العرب ٥٩٠ ص
١٧×٢٤سم ث ٦٣,٥ قرشا جزآن

ان قصة المخترع فى اى زمان ومكان قصة انسانية تبين الى اى مدى عانى هذا الشخص من العقبات التى كانت توضع فى سبيله والعقليات الرجعية التى كانت دائما تتهمه بالجنون او التحالف مع الشيطان ...

وهذا المؤلف (تاريخ الاختراع) يقع فى جزءين يضمان ثلاثة اقسام شملت معظم انباء الاختراع منذ بدء الخليقة حتى اليوم .

القسم الأول : الطاقة . ونجد المؤلف قد اورد تاريخها فى خمسة ابواب : ففى البابالأول يتكلم عن (الأرقاء والرياح والماء) واستخدام الانسان المستعبد أو الآلة البشرية كمصدر للطاقة وهذا كان شيئا عاديا فى تلك الأزمنة البعيدة حيث كان « الأرقاء الذين يملكهم الأفراد أو تملكهم الدولة يقومون بتأدية الشاق من الأعمال اليدوية بقصد تهيئة حياة ناعمة مترفهة لأقلية مختارة » . وهذا النوع من الطاقة كما نعلم نحن جميعا لم يكن ليستخرج الا تحت ضربات السياط . والعجيب ان تمتلك الدولة نفسها أرقاء تماما كما تمتلك البغال او الاحجار.

ثم تكلم المؤلف عن الرياضى الاغريقى ارشيمدس الذى عاش حوالى ٣٠٠ ق . م وعن وضعه لقانون الرافعة وفائدتها الآلية وعن استخدام البكرة والحلزون (مازال الفلاحون عندنا يستخدمون حلزون أرشميدس الطنبور لرفع الماء) والعجلة المسننة فى رفع الأثقال وقوة الرياح لادارة مراوح الطواحين او مراوح آلات رفع الماء الخ . كما بين ان قوة اندفاع الماء كانت تعرف فى الدولة الرومانية حوالى ١٠٠ق.م اذ استخدمت فى ادارة عجلات الآلات . وذكر باختصار معرفة العرب لهذا النوع من الاختراع .

وتكلم المؤلف فى الباب الثانى عن (النجار والصناعة) وعن تأثير العقلية الدينية طوال القرون الوسطى على تأخير عصر الاختراع وتعطيل الفكر البشرى هذه الحقبة الطويلة . « فالحياة على الأرض باستثناء القلة المختارة كانت مجرد واد من الدموع والشقاء والعرق واية محاولة لجعلها أخف وطأة كان ينظر اليها على أنها اغراء من الشيطان وأجبر العلماء الذين جزءوا على استكشاف بعض الحقائق العلمية مثل ان الأرض ليست مركز الكون – على انكار ما وصلوا اليه بل وكانت تضرم فيهم النيران ويحرقون اذا أصروا على ادعائهم ... »

ومثل هذه العصور المظلمة اذن لم تكن لتسمح بأى تحقيق عملى لفكرة المخترع . ونجد هذا جليا فى ظهور العقليات الحالمة مثل عقلية الفنان العبقرى ليناردو دفنيشى . فخلاف رسومه الخالدة قد ترك مذكراته التى كتبها فى القرن الخامس عشر تحوى كثيرا من افكار الاختراع .

« نجد من بين أشياء اخرى نولا آليا ومسدسا بقرص أمان وآلة للطيران ومسرحا دوارا ومضخة تدار بالبندول » الخ وظلت هذه

الاحلام كامنة حوالى ٣٠٠٠ سنة حتى حــوالى القرن الثامن عشر ...

ولا عجب فى ذلك فالفكرة السائدة وقتذاك كانت هى عــدم التدخل فى قوى الطبيعــة واستخدامها لتخفيف اعبــاء الجنس البشرى « وانقاذ الانسان العادى من العناء الذى كتب عليه من قديم الأزل » .

ونجد هذه الفكرة على سبيل المثال فى المركيز (أوف ورسشتر) الذى اعتقــله كرمويل فى انجلترا حوالى سـنة ١٦٥٠ والذى قال عقب محاولته بعض الاختراعات « انه توجه بالصلاة الى القــدرة الالهيــة لتعاقبه على غطرسته ورضــوخه لاغراء الشيطان اذ كان تداخله فى قوى الطبيعة قد اصابه بالغرور »

وبدأ عصر البخار باختراع بابن سنة ١٦٧٥ لقدره المعروف باسمه والذى يمكن بواسطتــه ايصال الماء الى درجة فوق درجة غليانه العادية وذلك باستخدام ضغط بخاره عليه . وهــو اساس (حلة الضغط) التى نستخدمها الآن لطهى الطعــام فى خمس دقائق والتى سماها مخترعها وقتذاك باسم (هاضمة الطعــام) . وتلاه نيوكومن باختراعه للمحرك البخارى فى سنة ١٧١٢ الذى حسنه جيمس وات .

ويتكلم الباب الثالث عن (قصة الكهرباء) فذكر ان قدماء الاغريق عرفوا اســاس علم الكهرباء اذ لاحظوا خاصية التكهرب عند اقتراب الكهــرمان من القش او الريش الخفيف وكان تاليس الميلينى (حــوالى ٦٠٠ ق.م) أول من لاحظ هذا .

وظلت هذه الفكرة بدون تطبيق حــوالى ٢٠٠٠ سنة اى حتى القرن السابع عشر حينما صــنع فون جوبريكة آلة لتوليـد الكهــرباء الاستاتيكيــة وبدا وليم جلبرت طبيب الملــكة اليزابيث الأولى فى اعادة تجــارب التكهــرب السابقة . وكان بعث هذه التجارب هــو أول عصر الكهرباء الحديثة .

ولعل اطرف ماجاء فى هــذا الباب هــو الاستنتاج الذى استنتجه فى القرن الثامن عشر جــورج كريستوف ليشتنبرج من « ان تابوت العهد الخاص باليهود القدامى كان آلة كهربائية ... كان التابوت مبنيا من خشب الســنط الجاف المبطن من الداخل ومن الخارج برقائق من الذهب ... وكان الهيكل باكمله الذى يضم التابوت يحتوى على مقــدار كبير من الذهب والفضة والنحاس الأصفر وهى معادن يمكنها ان تجذب الكهربية الجوية ... »

ويتكلم الكتاب عن السحابة التى اعتادت ان تتجمع فوق الهيكل وقال « ومن الجــائز ان الكهنة قد استغلوا هذه الظاهرة فى التأثير على الجماهير »

ولكنى اجد ان هــذا الراى غير معقول فى نظرى لأن التابوت لكى يكون مشحونا بالكهرباء كان لابد من توصيله الى مصــدر كهربى قوى كصاعقة مثلا الشىء الذى لم يكن متيسرا فى ذلك الوقت وان كان قد حــدث مرة فلم يكن معقولا ان يحدث باستمرار .

وتفسير الأمور الدينية بانها اختراعات علمية شىء غير منطقى وكان الأجدر بلسيشتنبرج هذا ان يفكر فى وجود قوة روحية وراء الظواهر الخارقة .



اما الطريقة الثانية فهى عن الويزو جلفانى استاذ الطب فى بولونيا بايطاليا الذى كان يحاضر على طلبته فى منزله بينما كانت زوجته حينئــذ تنزع جلد الضفادع التى كانت تعتبر غــذاء الأستاذ المفضل لتعد العشاء فى المطبخ المجــاور مستخدمة فى هذا مشرطه «وبينما هى تنصت الى المحاضرة وقع المشرط من يدها على فخــذ الضفدعة ملامسا فى نفس الوقت الطبق المصنوع من الزنك وحدث حينئذ ان ارتجفت الضفدعة الميتة بعنف كما لو كانت تحــاول القفــز من الطبق ... »

وظن جلفانى انه اكتشف من هذه الملاحظة سر الكهرباء الحيوانية ولكن هذا كان خطأ كما بين فولتا بعد ذلك والذى اخترع العمود الكهربى المعروف بعمود فولتا حوالى سنة ١٨٠٠ .

ومن المعلوم ان كثيرا من الاكتشافات العلمية قد تمت عن طريق الصدفة ونجد مثلا لذلك فى سنة ١٨١٩ فحينما كان فيزيائى دنمركى يدعى اورستد يحاضر فى جامعة كيل وصدفة انزلق منه سلك فجأة وسقط فوق بوصلة بحرية هناك فلاحظ انحرافها وكان هذا سببا فى اكتشاف التأثير المغناطيسى للتيار الشىء الذى كان مدخلا بعد ذلك لاختراع المحرك الكهربائى الخ .

وتلعب الصدفة دورها مرة اخرى عندما كان اديسون عاكفا على اختراع مصباحه الكهربائى فقد لاحظ فجأة أن زرارا مدلى من خيط فى سترته « قد أوحى اليه فى النهاية بالفكرة الصحيحة حيث وجد ان خيط الحياكة العادى المكربن (المغطى بالكربون) هو أنسب هذه المواد اذا ادخل بعناية فى مصباح مفرغ من الهواء ... »

وأدت هذه الصدفة الى ذلك الاختراع العظيم وكان يوم عيد لأديسون وللبشرية جمعاء حينما أضيئت مدينة نيويورك يوم ٤ سبتمبر ١٨٨٢ بالكهرباء وقلبت الليل الى نهار ...

وكان الغاز يسير جنبا الى جنب مع الكهرباء ففى سنة ١٨١٣ تمكن صمويل كليج من تركيب المصابيح الغازية على كوبرى وستمستر فى لندن وفى سنة ١٨٢٠ كانت باريس كلها مضاءة بالغاز وكذلك كانت نيويورك فى سنة ١٨٢٣ . أما فى المانيا فقد قامت صحيفة فى كولونيا لتهاجم الاختراع الجديد فى سنة ١٨١٩ حيث قالت انه « يتدخل فى النظام الالهى للكون الذى جعل من الليل ظلمة لا ينيرها الا القمر ولا يبعد عن عقول الناس الخوف من الظلام الذى يقصى ذوى النفوس الضعيفة من التردى فى حماة الرذيلة . ولأنه يجعل الجواد جبانا واللص جسورا .. »

ويتكلم الباب الرابع عن (الطاقة الذرية) وفوائدها التى نحن فى حاجة شديدة اليها هنا فى بلادنا مثل حفر او تعميق الموانى والقنوات والانهار ورفع وازالة العوائق الملاحية واشغال المناجم وانتاج الزيت الخام وايجاد أنهار جوفية لرى الصحارى وانتاج النظائر المشعة للأغراض الطبية والزراعية وامداد الناس بالكهرباء أو غيرها ...



أما الباب الخامس فيتكلم عن (الطاقة المباشرة من الشمس) واستخدام المرايا العاكسة والبلورات شبه الموصلة والازدواجات الحرارية وتهافت الدول الفقيرة الموارد كالهند على استخدام هذا النوع من الطاقة ...

وينصب القسم الثانى من الكتاب على وسائل الانتقال ، وبه خمسة ابواب . الباب الأول يتكلم عن (العجلات والطرق والكبارى والقنوات) وكيف تطورت طريقة نقل الأثقال من الجر الى استخدام الدحاريج ثم الى القضبان ، ومعرفة العجلات لدى سكان جبال الألب وسكان الشرق الأوسط (حوالى ٣٥٠٠ ق . م) ولدى قدماء المصريين (١٨٠٠ ق . م) وانشاء الطرق خاصة عند الرومان لكونهم دولة استعمارية « من حدود اسكتلنده الى الخليج الفارسى ومن القوقاز الى جبال الأطلس » وذلك لأجل « تسهيل تنقلات تجارتهم وضباطهم وموظفيهم »

ومن اطرف ماجاء فى هذا الباب عن الطرق ان الاغريق ترددوا فى انشائها اذ ان « الأشجار والينابيع والأحواض والوديان العميقة لها (ارواح) أو أنها كانت على الأقل مأوى لأنصاف الآلهة ... »

كما جاء أيضا « ان أحسن المنظمين كانوا

يعينون كمشرفين على انشاء الطرق ولهذا نجد يوليوس قيصر كان فى وقت ما مشرفا على طريق فيا آبيا ... »

ومما يزيد القارىء دهشة قول المؤلف ان شخصا اعمى يدعى جون ميتكالف ظهر فى انجلترا فى القرن الثامن عشر وكان يسمى جاك الأعمى تخصص فى فتح الطرق الجديدة بكفاءة ممتازة .

ويتكلم الباب الثانى عن (السكك الحديدية) وان أول قطار رأته انجلترا كان فى سنة ١٨٢٥ حين قاد ستيفنسن قطارا مؤلفا من ٣٢ عربة عليها ٦٠٠ راكب ولم تزد سرعته عن ٢٠ كم/ساعة . وحين اريد مد خط حديدى بين منشستر وليفربول تألفت لجنة برلمانية لمناقشة ستيفنسن وتهزىء آرائه لأن « منظر القاطرات المرعب وهى تندفع فى طريقها سيؤثر على الأفراد وعلى الحيوانات وأن السيدات سيجهضن وان البقر لن يعطى لبنا وان الدجاج لن يبيض ... وان المراجل ستنفجر وتؤدى الى سلق الركاب حتى الموت وذلك بعد ان ينتابهم الجنون لأنه ليس فى امكان اى شخص ان يتحمل سرعة تزيد على عشرين كيلو مترا » . وقال احدهم « وبذلك فعلينا ان نركض بمعدل عشرين كيلو مترا فى الساعة بمعونة الشيطان المتخذ هيئة قاطرة ... »

ويتكلم الباب الثالث عن (وسائل الانتقال فى الطرق) وكانت أول وسيلة هى الآلة الجارية (فكرة الدراجة) حين اخترعها البارون درايز فى سنة ١٨١٣ وانشأ أول مصنع دراجات الفرنسى (ارنست ميشو) وكان العجل وقتذاك من الخشب . وصنع بنز اول مركبة بخارية فى سنة ١٨٨٧ وصنع دنلوب اول عجلة مطاط منفوخة بالهواء سنة ١٨٨٨ . وتأخر ظهور السيارة فى انجلترا بسبب قانون الراية الحمراء الذى يحتم سير رجل يحمل راية حمراء امام اى مركبة سريعة تسير فى الشارع ولم يلغ الا فى سنة ١٨٩٦ ...

ويقول المؤلف ان زيادة عدد السكان وازدحام المدن ادى بسرعة الانتقال فى المدن الى الرجوع القهقرى فسرعة أوتوبيس اليوم عادت الى سرعة الأوتوبيس المقطور بالجياد فى ثلاثينات القرن التاسع عشر . ويالها من نكتة ...

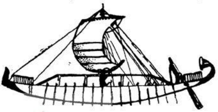
وتكلم المؤلف عن الطريق الالكترونى الذى يوجه السيارة لتسير بسرعة منتظمة فى خط المرور الصحيح وفيه يتفادى التصادم ويصبح القائد دون عمل ... كما تكلم عن خلية الوقود التى باستخدامها فى السيارة سيستغنى عن التروس وعمود الادارة والمحور الخلفى والدخان العادم والضوضاء . وهى التى تستخدم فى الأقمار الصناعية وسوف تحدث انقلابا فى عالم النقل ...

وفى الباب الرابع تكلم عن (السفن) وبين كيف ان قوة الريح تغلبت على قوة المجداف فى حرب الأرمادا سنة ١٥٥٨ بين انجلترا واسبانيا . وكيف ظهرت اول باخرة فى سنة ١٨٠٧ لتعبر نهر الهدسون فى امريكا وكان الناس فى خوف منها « بينما تضرع آخرون الى العناية الالهية ان تحميهم اقتراب الوحش الرهيب الذى كان يمشى على الأمواج ويضىء مساره بالنار المندلعة من جوفه » .

وتكلم المؤلف عن تطور مركبة النقل الى الهوفر كرافت وهى وسيلة انتقال تجمع بين السفينة والطائرة للتخلص من مقاومة الأمواج وكيف حاول كوكريل رفع الزورق فوق الماء او الأرض بمقدار ٣٠ ـ ٥٠ سم وذلك باستخدام عدد من النافورات الهوائية الحلقية الشكل . وهذا الارتفاع البسيط ضرورى اذ انه لا يستلزم قوة كبيرة اذ ان « مقدار القوة اللازمة لابقاء طائرة هليوكوبتر فى وضع يكاد يكون مرتفعا عن سطح الأرض هو حوالى الربع فقط من القدرة اللازمة لابقائها فى الهواء على ارتفاعات أعلى من ذلك بكثير » وتكلم عن فكرة المهندسين لصنع سيارات وقطارات ذات وسائد هوائية بين المركبة والمسار سواء كان قضيبين او قضيبا واحدا وبهذه الطريقة التى تترك مسافة ١٠٠٠ من البوصة بين المركبة والأرض يمكن ان تصل السرعة الى ٤٨٠ كم/ساعة .

وتكلم الباب الخامس عن (الطيران) وبدأ بالكلام عن البالونات وكيف ان الأخوة (روبرت)

عندما طيروا بالونهم وسقط فى قرية جونيس ظن اهلوها « عندما وجدوا شيئا غريبا كريه الرائحة راقدا فى احد الحقول اعتقدوا انه آت توا من الجحيم ... واستدعى راهبان من اهل الخبرة فاعلنا ان الشيطان نفسه قد ارسل هذا الوحش الرهيب الى جونيس ... » « واعتقد آخرون من اهل القرية ان هذا الشىء لم يات من الجحيم بل ان القمر ذاته هو الذى سقط الى الأرض وان اهالى جونيس قد دمروه أثنـاء حماسهم الخرافى ... »



وكان أول بالون حامل لانســـان من صنع الأخوين (مونتجولفييه) وحاولا وضع نبيلين فيه ولكن « اقترح الملك نفسه ان يحل مجرمان محكوم عليهما بالاعدام محل النبيلين الشـابين الا ان دى روزييه (احد النبيلين) ثار على هذه الفكرة خائفا من ان يسلبه هذان الوغدان من مجد كونه اول رجل يطير فى السماء »

وفى سنة ١٧٨٣ حاول شارل محاولة اصعاد بالون وبيعت التذاكر بأثمان باهظة لمشـاهدته « ولكن فى الدقيقة الأخيرة ظهر ضابط شرطة واعلن ان الملك قد اوقف عملية الصعود بسبب طبيعة الايدروجين الخطــرة . وكان ان اعاده الأستاذ شارل برسالة يقول فيهـا انه سيطلق الرصاص على نفسه فى التو واللحظة اذا رفض التصريح له بالرحلة وانه سيحمل معـــه سر اختراعه الى القبر » هذا وقـد صرح له الملك بالطيران بعد ذلك ...

وان الانسان ليعجب حين قراءة هذا الباب ويتذكر المثل القائل « لا جديد تحت الشمس » ففى هذا الباب نجد « وافتتن شـارل بروعة الطيران وبالهرب من الجاذبية الأرضية » وهذا القول هو نفس ماقرأناه فى سنة ١٩٦٥ أى بعد حوالى مائتى سنة حين صعد ملاحو الفضاء الى خارج نطاق الجاذبية الأرضية وماقاله ادوارد هوايت عندما خرج من مركبته جيمنى ٤ ...

وتكلم المؤلف عن اختراع الطائرة وتطورها. وعن طائرة الهليوكوبتر التى تطير راسيا وكيف جاء رسوم لانواعهـــا فى مذكرات ليوناردودى فينشى سنة ١٥٠٠ أى قبل ٤٠٠ عام . ثم تكلم بعد ذلك عن تضافر فروع علم الفيزياء لانجاح اطلاق اول قمر صـــناعى على يد الروس فى سنة ١٩٥٧ وكان هذا مقدمة لسفينة الفضـاء الروسية التى ركبها جاجارين فى سنة ١٩٦١ وطاف بها حول الأرض وتوالت بعد ذلك رحلات الفضاء الروسية والأمريكية ...

القسم الثالث : الاتصال ونقل المعرفة . وقد ضم سبعة ابواب : يتكلم الباب الأول عن (الكلمة المطبوعة) وكيف بدات الطباعة بآلة جوتنبرج فى المانيـا وكان اول عمل جـدى له هـو طبـع الانجيل فى سنة ١٤٥٦ ثم كانت أول صحيفة (ويكلى نيوز) فى انجلترا فى سنة ١٦٢٢ وأول صحيفة تطبـع بآلة دوارة بناها وليم بولوك الأمريكى فى سنة ١٨٦٣ وظهرت آلة الطبـــاعة الحديثة (اللينوتيب) التى اخترعها جينتالر فى سنة ١٨٨٦

وتكلم الباب الثانى عن (الارسال السلكى) وكيف انشىء أول خط تلغرافى فى سنة ١٨٤٤ فى انجلترا بين لندن ـ بلاكوون على يدى كول ، هويتستون وكان التلغراف يعتمد على انحراف الابر المغناطيسية تحت تأثير التيار وموضـــع الانحراف يدل على حرف أو رقم معين ... وكانت أول فائدة للتلغراف فى سنة ١٨٤٥ حين هرب لص وركب القطار فارسل تلغراف على اثره انتظره رجال الشرطة فى المحطـــة والقوا القبض عليه ـ وكان الناس على اثر ذلك يقولون « لقد شنقت حبال التلغراف جون تاول ... »

اما فى روسيا فقـد مزق القيصر نيكولاس الاتفاقية لتركيب تلغراف مورس فى بلاده وقال « بمجرد اقامتنا لهذه الأعمدة التلغرافيـة فان رعاياى المخلصين سوف يحطمونها اما بقصـد استعمالها وقودا لنيرانهم واما لأنهم يظنون ان

الشيطان موجود فى تلك الأسلاك » وهذا يبين مدى خوف القيصر من اتصال الشعب أو ارتقائه ...

اما فى امريكا فقد عمل مورس على استئجار خفراء لحراسة الخطوط من التخريب الذى كان يقوم به الأهالى بايعاز رجال الدين . وعندما افتتح الخط بين وشنجطن وبلتيمور بأول برقية فى سنة ١٨٤٤ كانت الرسالة هى (هذا ما قدره الله)

وعندما ظهر التليفون نشرت المجلة الالمانية الشعبية (دى جاتنلوبه) مقالا تحت عنوان « لعبة للصبية المهرة » فى سنة ١٨٦٢ وصفت فيه كيفية صنع التليفون فى المنزل وفىسنة١٨٧٧ اخذ مصنع سيمنز فى بيع التليفونات فى المانيا لكى يستخدمها الناس كلعب فى منازلهم »

اما فى امريكا فقد ظهر تليفون بل فى سنة ١٨٦٧ .. وهو المستخدم الآن . اما التليفون الأوتوماتيكى فقد سجله مخترعه (بألون ستروجو) فى سنة ١٨٨٩ فى امريكا عقب مشاجراته الطويلة مع عاملات التليفون مما دعاه للتفكير فى جهاز يخلصه منهن .



ويتكلم الباب الثالث عن (الراديو) فبدات أول محطة تلغراف لاسلكى فى انجلترا على يدى ماركونى فى سنة ١٨٩٧ كما انشئت أول محطة اذاعة لاسلكية هناك فى سنة ١٩٢٢ وكانت تذيع نصف ساعة مرة واحدة فى الأسبوع وكانت قوة المحطة ١٠ وات لاغير ...

ويتكلم الباب الرابع عن (الاصوات المسجلة) وفضل اديسون الأمريكى الذى قال «ان العبقرية ما هى الا ٩٨ فى المائة عرق والباقى الهام » ولكن يظهر ان الالهام اقوى بنسبته الضئيلة من العرق . فنجد مثلا ان ابرة وخزته فى اصبعه حين كان يجرب على تسجيل الاشارات التلغرافية فكانت هذه الوخزة هى السبب فى تفكيره فى اختراع اسطوانة تسجيل الصوت التى نتداولها اليوم ...

ويتكلم الباب الخامس عن (الصور) وكيف لعبت الصدفة مرة اخرى حين كان داجير الفرنسي يجرب على الألواح الحساسة فى

سنة ١٨٣٧ ووضع بعضا منها بعد التصوير عليها فى دولاب وبعد مدة وجد الصور مازالت عليها ولما بحث عن السبب وجد عددا من « كرات الزئبق الدقيقة اللامعة كانت قد تدفقت من قنينة مكسورة » وكان أن « تظهرت لوحات يوديد الفضة تحت التأثير الكيماوى لبخار الزئبق » .

وتطورت آلة التصوير وظهرت آلة السينما وعرض أول فيلم فى لندن سنة ١٨٩٦ ولما عرضه صاحبه روبرت بول وكان عنوانه (وصول قطار فى محطة) احدث أعظم اثر فى النفوس « لذ كان بعض الحاضرين عند مشاهدتهم للقطار متجها نحوهم مباشرة يصيبهم الذعر ويهرعون الى أبواب الخروج وكان الاغماء يصيب السيدات مما دعا الادارة الى استخدام ممرضة للعناية بهن » .

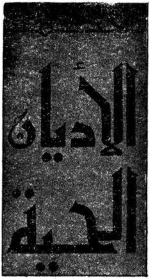
ويتكلم الباب السادس عن (التلفزيون) وكيف تم أول جهاز لنقل الصورة ـ ملامح وجه انسان ـ من غرفة الى اخرى مجاورة على يد (بيرد) فى سنة ١٩٢٥ واقامة أول محطة اذاعة (الكسندرا) فى انجلترا فى سنة ١٩٣٦ والجهود المتوالية لتحسين الاختراع .

وتكلم الباب السابع عن (الكترونيات كل يوم) أى عن فائدة علم الالكترونيات فى الاتصال بالكواكب والمدد الطويلة اللازمة للاتصال بها اذ أن اقربها الينا يبعد بمسافة ٥ سنوات ضوئية ومعنى هذا أن الاشارة التى نبعث بها الى هذا الكوكب ترتد الينا بعد عشر سنوات ... والفائدة الواضحة لأعيننا الآن هى الاتصال بالأقمار والسفن الفضائية والمستقبل كفيل باظهار فضل هذا العلم الجديد فى غزو الكون الفسيح ...

أما عن اخراج المؤلف فقد لاحظت وجود بعض الأخطاء المطبعية وهى اخطاء تعتبر حساسة اذا انصبت على تواريخ الاحداث ... كما انى لاحظت عدم وضع الصور فى اماكنها الصحيحة . وان هناك خطأ فى رسم احدى الدوائر الكهربية اذ وضع القطب الموجب محل القطب السالب .

وان كنت اقول هذا فذلك يعود الى اعجابى بموضوع الكتاب وأسلوب الترجمة . وكنت أود ان يكون اخراجه فى مجلد واحد للتوفير على القارىء كما انى اقترح ان تطبع من هذا المؤلف طبعة خاصة فى حجم الجيب . وتكون رخيصة الثمن فى متناول طلابنا وشبابنا على اختلاف مستوياته . فالمؤلف ذو فائدة لا تقدر بثمن فهو يأخذ القارىء فى ظرف ساعة فى رحلة عبر الأجيال ويعطيه فكرة ممتعة عن ظروف الحياة وصورة خيالية عن مجتمع اجداده ويعود به بعد الرحلة وهو مقتنع بأنه لا يوجد فى الأرض قوة أكبر من قوة العقل البشرى وأن لكل شىء نهاية الا حب الاختراع .

الدكتور علي عبد الجليل راضي



تأليف جوزيف كابر

الناشر : مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

ترجمة
حسين الكيلانى
مراجعة
محمود الملاح

٣١٠ ص ١٧×٢٤سم
طبع دار مكتبة الحياة
بيروت
١٩٦٤

المؤلف

مؤلف الكتاب هو چوزيف كابر : روسى ولد فى سنة ١٨٩٧ ثم رحل فى سن العشرين الى أمريكا حيث تزوج وتعلم فى جامعاتها ، ثم أختير للتدريس فى جامعة كاليفورنيا ، ثم تولى وظائف أخرى فى حكومة الولايات المتحدة والكونجرس الأمريكى ، كما كان رئيسا لشركة مؤسسات « كير » للطباعة والنشر فى نيويورك . ألف أكثر (من عشرين كتابا ، خاصة فيما يتعلق بالديانات العالمية ، وأسهم فى تحرير عدة منشورات دورية امريكية معروفة) وآخر مؤلفاته كتاب : « كيف بدأت الديانات الكبيرة » وقد طبع عدة مرات منذ صدر فى سنة ١٩٣٠ .

المترجم

ولد وتعلم فى بغداد ، تخرج فى كلية الحقوق بها سنة ١٩٤١ واشتغل فى الاذاعة العراقية قبل أن يتم دراسته القانونية ، ثم انتقل الى السلك السياسى العراقى حيث تنقل بين بعض البلاد العربية والأوربية ، ثم ترك وظائف الدولة فى سنة ١٩٥٨ حيث اشتغل بالمحاماة والأدب .

اما المراجع فلم يحدثنا الكتاب عنه بشىء .

مادة الكتاب واطاره

(اذا امعنا النظر فى الكتب المقدسة للأديان الحية نجد أن وصايا وأقوال كل دين تحمل تعاليمه الأساسية وأنها بطبيعتها وكميتها تمكن من دراسة أخلاق أصحابها .

ان أقوال الأديان الحيــة تستحق الدرس لعدد من الأسباب ، فان لكل واحد منها فكرة مثيرة ، وكل واحد ينطوى على مبدأ ارشادى ، وكل واحد يتسم بالاختصار والدقة وسهولة التذكر ، والمجموع الاجمالى لأقوال أى من الأديان يزودنا بالقواعد الأساسية لذلك الدين ، والدراسة المقارنة لجميع الأديان الكونية تميط اللثام عما بينها من تشابه أساسى أو تباين .

والأقوال المدرجة فى هذا الكتاب تعطى فكرة عن محتويات « المصادر المستعملة » وتعاليمها . ولذلك أختيرت له منتخبات من الأقوال النموذجية من كل الأقوال الحيــة) ص : ١٣ - ١٤ من المقدمة .

هذا «الاطار» للكتاب ، كما تضمنته مقدمته ، يحتوى عشرة فصــول ، أو أبواب كما سماها المترجم ، تسبقها مقدمة فى خمس صفحات . والأبواب العشرة مرتبــة هــكذا : البوذية : « ١٨ صفحة » .

المسيحية : «٣٥ صفحة» ، الكونفشيوسية : « ١٦ صفحة » .

الهندوسية : « ٢٨ صفحة » ، الجانتسية : « ١٠ صفحات » .

الموسوية : « ٤٨ صــفحة » ، الاســلام : « ٣٠ صفحة » .

الشنتوية : « ٨ صــفحات » ، التاوية : « ١٠ صفحات » .

الزردشــتية = « المجوســية » : « ١٢ صفحة » .

وكل باب من هذه الأبواب يبــدأ بتعريف موجز عن صــاحب الديانة التى يتحدث عنها وتاريخه وكتب هذه الديانة ، ثم يختار من كتابها المقدس وأقوال صاحبها ما يقدم للقارىء صورة كافية عن جوهر هذه الديانة وغايتها ودعوتها ، فهى تعاريف ، على ايجازها ، مفيدة .

ونحن نعرف من هذه التعاريف والمختارات أن البوذية ، مثــلا ، دين يقوم ، أو يحاول أن يقوم ، على المنطق ، فهو يســتخدم المقدمات والنتــائج والأسباب والمسببات فى أحاديثه وحكمه ، وأنه يدعو الى التأمل ومحاسبة النفس ، ويحض على عمل الخير وطهارة الباطن قبل أن يدعو الى الطقوس والمراسم والأشكال .

وأن « الكونفشيوسية » هى دين « الولاء » والاخلاص والنبل والخلق والقانون ، تقوم على جوهر يقول باختبــار النفس كل يوم فى ثلاثة أمور : هل قصر المؤمن فى أن يكون حى الضمير فى نصح الآخرين .. ؟ أو فى ان يكون مخلصــا لاصدقائه ... ؟ او فى أن يعمل بما يعلم .. ؟ وأن « دستور الرجل الرفيع » فيها أن يكون متواضعا يكرم من هم أسن منه ، كثير البر عادلا على الدوام ، وأن « الانســان الكامل » فيها لا يبــالى أن يضر نفسه فى سبيل الحق ، وأن يجازف بحياته عند الخطر ، وأن يقف عند كلمته .

كما نعرف أنها دين يتمسك بالحياة والسعى فيها والمتاع بها ، ومن أهم ما يحرص عليه من المتاع : « الموسيقى » ، وحرصــه على الحياة والسعى فيها جعل صــاحب الدين يقول فى النهى عن الاشتغال « بالميتافيزيقا » : (كيف نفهم الموتى ونحن لا نعلم عن الحياة الا يسيرا ... ؟)

ونعرف من هــذه المقدمات والمختارات أن الديانة « الهندوسية » هى دين الحب والصبر والبر والسماحة والعمل ، و« الحكيم » فيها هو الصبور الذى لا تصرعه الأحــزان ولا يزدهيه الفرح ، الذى يملك السيادة على نفسه ، المطمئن النفس ، و « حبيب الله » فيهــا هــو القنوع الصــادق الرحيم الذى لا يكره مخلوقا والذى يجعل للعدو فى قلبه مكانا ، كما يجعل للصديق ، المتواضع الذى لا يزدرى أحدا ولا يستنقصه .

وأن « التاوية » دين فضائل : هى السلام ، والايثار ، والعدل ، والتواضع ، والمسابرة ، ولها فى ذلك هذا المثل الصادق الجميل : (لا شىء ألين من المــاء ، ومع ذلك فما من شىء يغير مجراه) .

الحكيم الفاضــل الحق فيها هو من كانت فضيلته ذاتية ، الذى لا « يستعرض فضيلته » و (لا يقيم معرضا لعظمته ، وبذلك يبلغ العظمة).

ونعرف أن « المسيحية » هى دين الأخوة والمحبة والمغفرة والفداء والطهارة ، دين «الطفل» الذى يريد أن يدخل « ملــكوت الله » بالحب والصفاء .

حكمة الأديان الحية

أما « الاسلام » فنجد أن الصورة عنه هي ما نعرف من أنه « دين الوسطية » .

فاذا أردنا أن نعرف على أى أساس وضع المؤلف هذه الديانات العشرة فى هــذا الترتيب لم نستطع ، فهو لم يتخــذ السبق الزمنى أساسا ، ولا عدد الأتباع والمعتقدين لكل دين ، وان كان هذا العدد لا يمكن الوثوق به ، فهو موضع خلاف وشك حتى فى أدق الاحصاءات .

وقد اتبع هــذه الأبواب بفهرس أبجـدى للموضوعات يجمع الأرقام التى تضمنتها أقوال الأديان العشرة فى الموضوع الواحـد ، وبذلك يستطيع القارىء أن يعرف موقف كل دين حيال الموضوعات التى تتعرض لها الأديان وأن يقارن بينها أو بين بعضها والبعض الآخر .

نبع واحد :

وقد أفدت من الكتاب – فوق ما أفدت من المعرفة والمتـاع – أن هناك نبعا واحدا تستمد منه هذه الديانات كلها جوهر دعوتها وخلاصة آدابها وتعاليمها ، وأن هذه الديانات كلها ، فى جـوهر دعوتها وآدابها ، شديدة التقارب أكثر مما يعتقد أصحابها العاكفون عليها .

نجد ، مثلا ، جوهر البوذية وروح دعوتهـا – كما رأينــا من قبل – الحب والتأمل حتى يصل المؤمن الى الصفاء وطمأنينة النفس ، ثم لا نلبث أن نجـد ، فى يسر ، هذا الجوهر نفسه فى المسيحيــة والاســلام والكونفشيوسية والهندوسية وبقية الأديان الأخرى ، وكذلك فى الآداب والفضائل والروابط الانسانية .

ومن يقرأ الكتاب كما قرأته وأحسست روحه وتأمله يدرك تلك اللحمة التى تجمع هذه العقائد والأديان – وهى جملة ما يعتقده البشر الآن – بعضها الى بعض ، ويحس تلك الوشيجة القوية العريقة الممدودة بينها ، رغم تباعد الزمن وتباين الأسماء ، وخلافات – أو خصومات – الأتباع والأدعياء .

يجد « كلمة » واحدة تجمع بينها وتجمع هى كلها على ذكرها وترديدها والدعوة اليها ، هذه « الكلمة » هى : « الحب » .

فى هذه « الكلمة » نجد « البوذية » تقول : (البغضاء لا تتلاشى بالبغضاء ، أبدا ، انما تتلاشى البغضاء بالحب . هذا هو الدستور الخالد) .

وهــذه « الكلمة » تقولها « المسيحية » وتؤكدها حتى يعرفها النـاس « بدين المحبة » والسلام ، وشـعارها آيتا الانجيل : (وصية جديدة أنا أعطيكم : أن تحبوا بعضكم بعضــا) و : (أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، أحسـنوا الى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم) .

وفى هذه « الكلمة » تقول « الكونفشيوسية » ان نبيها سئل : (هل ثمة كلمة واحـدة تجمع أساس الخصال الحميدة ... ؟ فأجاب : أليست المبادلة = مبادلة الحب – هى تلك الكلمة .. ؟ فما لا تسيغونه لا تقدموه للآخرين) .

وفى كلمة « الحب » هــذه يقول كتـــاب « الهندوســية » المقدس = « هيثوباديا » : (الدين الحقيقى هو أن نحب ، كما يحب الله الأشياء جميعا كبيرة أو صغيرة) .

وفى كلمتى « الرحمــة والحب » تقول « الجانتسية » : (جميع الأحياء تكره الألم ، وعلى هذا لا تؤذها ولا تقتلها ، ان روح الحكمة هو : لا تقتل حيا) .

وتقول الموسوية فى « التلمود » : (لا تعملوا بالآخرين ما هو مكروه لكم ، هذا هو الناموس برمته ، وكل ماعداه شروح) .

وفى كلمة « الحب » هذه يقول نبى الاسلام فى حديثه الشريف : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ويقول : (والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا) .

وفى كلمة « الأخـوة والمحبـة » تقول « الشنتوية » = « دين اليابان » : (كل الناس اخوة ، وكلهم يستلمون بركات سماء واحدة) .

وفى كلمة « الحب » هـذه تقول الديانة « الثاوية » = « الصين » : (الجدير بالحكم من يحب الناس جميعا كما يحب نفسه) .

وفى كتـاب « فينـديداد » = « كتاب الزردشتية المقدس » نجد هذه الوصية الجامعة : (اعتكف على ثلاثة أمور فائقة : أفكار صالحة ، ألفاظ صالحة ، أعمال صالحة) وليس أفضل ولا أكرم ولا أصلح من أفكار « الحب » وألفاظه ولا من الأعمال التى يكون الحب رائدها ودافعها ومبتغاها .

وهذه الآيات والأحاديث والوصايا قد جمعها المؤلف الى كثير غيرها واختارها شعارا للأديان العشرة التى كتب عنها واقتبس منها .

وقد كان فهمى للدين = أى دين — وايمانى به قبل أن أقرأ « حكمة الأديان الحية » هو هذا الفهم وهـذا الايمان — كما ضمنت ذلك بعض كتبى — ولكنى خرجت من قراءة هذا الكتاب وقد تأكد فهمى هذا وتعمق ايمانى به وزاد يقينى عنـه ، كما زاد فرح قلبى وزادت سعـادته بالاحساس « بهـذه الوشيجة القوية العريقة الراسخة الممدودة بين الأديان جميعا ، رغم تباعد الزمن وتباين الأسماء ، وخلافات — أو خصومات — الأتباع والأدعياء » وشائج عريقة :

وكما نحس احساسـا قويا ، ونحن نقرأ الكتاب ، هـذه الوشائج العريقة فى ان هـذه الأديان كلها تصدر عن نبع واحد ، ونحس هذا الاصرار على كلمة الحب والاخاء والايثار ، ندرك أيضا ان بين هذه الأديان وأهلها وشائج أخرى واواصر من التوافق فى كثير من الآراء والنظرة لكثير من امور الحيـاة وشئونها وأوضاعهـا ، وأن « مدارك عامة » تواضع عليها البشر تجمع بينهم أكثر مما تفرق ، وتبنى أكثر مما تهدم ، وتصون أكثر مما تبـدد من ذخيـرة الأخوة البشرية . بل ان كثيرا من شئون الحياة هـذه نجد كلمات متشابهة ، أو متفقة ، تعبر عنها فى كثير من أقوال هذه الديانات وعقائدها وآيات كتبها ومأثور أحاديثها ، كما نرى بعد قليل .

نجـد نظرة « البوذية » للحيـاة مشوبة بالحـزن والـكدر والتوجس ، وهى فى ذلك تقول : (كيف يتسنى الضحك وكيف يكون السرور فى هذه الدنيا التى تستعر أبدا) « ص : ٣٢ »

وفى التعبير عن هذا الاحساس نفسه نحو الحياة يقول الحـديث الشريف : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) ثم نجد ذلك فى كثير من الأدب العربى نستطيع أن نذكر منـه شعر ابن الرومى الذى يقول عن هذا الاحساس يريد أن يفلسف فيه ويتمنطق :

لمـا تؤذن الدنيـا به من صروفها
يكون بكاء الطفل سـاعة يولـد
والا فمـا يبكيـه منهـا وانها
لأفسح مما كان فيـه وارغد .. ؟

ونجد تشبيه الانسان الطيب الخير بالطفل والدعوة لأن يكون للانسان الحكيم قلب طفل ، نجد ذلك فى كلمة الديانة « الثاوية » : (الحكماء يسمعون ويرون كالأطفال الصغار) ثم نجد ذلك واضحا بارزا عميقا فى كلمات السـيد المسيح ودعوته وسلوكه .

ونجد من آيات التلمود : (خير لك أن تكون مشتوما من أن تكون شـاتما) د : (كن لينا كالقصبة لا صلبا كشجرة الأرز) وهما آيتان من ثمرات الخبرة العميقة بالحياة ما يزال الناس يقولونهمـا ويدعوان الى اليـوم والى كل يوم يجيىء .

ونجد من آياتها : (يزاول الاحسان الحقيقى سرا ، وافضل أنواع الاحسـان حيث لا يدرى المحسن لمن أعطى ولا الآخـذ ممن أخذ) وهى آية من آيات الفضائل الباقية تقولها الأديان الأخرى ويتواصى بها الخيرون من الناس ، الذين يحضهم الحـديث الشريف على ان يحسـنوا فلا تعرف يسراهم ما تحسن به يمناهم .

ونجد فى « أسفار الحكمة » للديانة اليهودية : (... وكما تكون أخـلاق حاكم المدينة كذلك يكون سائر سكانها) وهو مثل نكتبه ونقوله فى أمثالنـا العربيـة القديمة : « الناس على دين ملوكهم » .

ومن كلمات هذه الأسفار : (أيام البشرية

حكمة الأديان الحية

مائة عام على الأكثر كقطرة من المـاء للبحر ، وكحجارة رملية بالقياس الى الرمل ، كذلك الالف عام بالنسبة لأيام الأبدية) « ص : ١٩٦ » ومن آيات القرآن الكريم (١) (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) .

ومن كلماتها : (يا بنى لا توصم صالح أعمالك أو تستعمل كلمات مؤذية عندما تمنح شيئا . ألا يلطف الظل الحرارة .. ؟ كذلك رب كلمة خير من هدية . اليست كلمة خيرا من هدية . ؟ ولكن كلتاهما مع الرجل الرحيم) ومن آيات القرآن الكريم (٢) : (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) .

وكراهة الناس للفقراء حقيقة عريقة فى حياة البشر قالت فيها أمثال التوراة هذه الآية : (ايضا من قريبه يبغض الفقير ، ومحبو الغنى كثيرون) وقال فيها الناس فى كل زمان وكل لغة ، ومنهم ابن دريد الذى يقول فى « المقصورة » :

والناس كلا ان فحصت عنهم
جميع أنحاء البلاد والقرى

عبيد ذى المال ، وان لم يطمعوا
من غمره فى جرعة تشفى الصدا

وهم لمن أملق أعداء ، وان
شاركهم فيما أفاد وحوى

(١) الآية ٤٧ من سورة الحج .
(٢) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .

ومنهم عروة ابن الورد الذى سبقه فقال :

أرينى للغنى أسعى فانى
رأيت الناس شرهم الفقير

ومن المدارك الانسانية العريقة المشتركة التى تعلمها الناس من التجربة والمعاناة نجد فى البوذية حكمة تقول : (أصدقاء جهلاء شر من أعداء عقلاء) ثم نجدها فى مثلنا العربى : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » . ونجد فيها حكمة تقول : (لا تثق بمن وثق به ومن لم يوثق به ، فان الثقة أهلكت الأسد) ثم نجدها فى مثلنا العربى : « سوء الظن من حسن الفطن » .

والسلامة ورضى النفس والبعد بها عن الزيوف مطلب تحرص عليه نفوس السعداء القانعين ، وفى ذلك نجد « الموسوية » تقول : (لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام) ثم نجد الشاعرة العربية القديمة تقول وقد نقلت من خبائها الى قصر تلبس فيه شفائف الحرير :

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عينى
أحب الى من لبس الشفوف

ونجد فيها مثلا يقول : (الانتهار يؤثر فى الحكيم أكثر من مائة جلدة فى الجاهل) ثم نجد بيت الشعر العربى المشهور :

العبد يقرع بالعصا
والحر تكفيه المقالة

ونجد الحرص على السمعة وجهارة الاسم وبعد الصيت مرغوبا محبوبا مقدما على المال فى هذه الأمثال التى تقول : (الصيت أفضل من الغنى العظيم ، والنعمة الصالحة افضل من الذهب) وكلنا قد قال أو سمع مثلنا العامى : « الصيت ولا الغنى » .

ونجد فيها مثلا يقول : (اجعل رجلك عزيزة فى بيت قريبك لئلا يمل منك فيبغضك) وفى مأثور حديثنا : « زر غبا تزدد حبا » .

وفى أمثال التوراة مثل يقول : (المكثر من الأصحاب يخرب نفسه ولكن يوجد محب الصق

من الأخ) ومن أمثالنا العربية : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

وفى أمثال اليهودية مثل يقول : (من يحفر حفرة يسقط فيها ، ومن يدحرج حجرا يرجع عليه) وأمثالنا العربية تقول : « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » .

ومن وصايا التوراة : (... فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبلما « ينفصم حبل الفضة » أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر الجرة على العين أو تنقصف البكرة عند البئر ، فيرجع التراب الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاها) ومن وصايا تراثنا العربى : « اغتنم شبابك قبل هرمك » .

ومن « أقوال الآباء » فى الموسوية : (الأجر على قدر المشقة) ونحن نجده بحروفه فى أحاديثنا وكتبنا .

وبعض التشبيهات والتعابير نجدها كما هى ، نجد فى انجيل متى : (انظروا الى طيور السماء : انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها . ألستم أنتم بالحرى أفضل منها ... ؟) ونجد فى الحديث الشريف : « لو اتقيتم الله حق تقاته لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصا وتعود بطانا » .

وليس شىء من ذلك غريبا ، فان الأديان الكبرى تجىء ، كما قلنا ، من نبع واحد ، والنفوس الكبيرة تحس احساسا واحدا ، والعقول البصيرة تدرك مدارك متشابهة وتدعو كلها الى حقيقة واحدة : فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ومن ذلك انا نجد فى « البوذية » كلمة تقول : (نفس الانسان أصعب ما يمكن اخضاعه) ونجد فى الحديث الشريف أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، وأن « القابض على دينه كالقابض على الجمر » .

وفى البوذية آية تقول : (كل المخلوقات الى فناء ، من آمن بهذا كان وادعا فى دنيا الآلام ، كل ما فى هذه الدنيا باطل ، ومن آمن بهذا فهو فى منجاة من ربقة الأحزان) وكلنا يعرف أو يحفظ آية سفر الجامعة : « باطل الأباطيل ، الكل باطل » ، وشعر لبيد فى معلقته :

ألا كل شىء ، ماخلا الله ، باطل
وكل نعيم ، لا محالة ، زائل

وفى المسيحية يقول انجيل متى : (لا تدينوا لكيلا تدانوا) وهى فى احاديثنا : « كما تدين تدان » .

ومن آيات الانجيل : (ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غنى الى ملكوت الله : والقرآن الكريم يقول : « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين .) (١)

والايمان بحياة « البرزخ » نجد له ذكرا فى الحديث عن « الزردشتية » = « ص : ٢٦٧ من الكتاب » وهو ايمان نجده قائما راسخا فى العقيدة الاسلامية وفى ثقافتها ونفوس المؤمنين بها .

ونجد فى « الوصايا العشر » لليهودية آية تقول : (اذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ... لان فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع) « ص : ١٥٧ » والقرآن الكريم يقول : (الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) (٢) .

ونجد فى « سفر أيوب » آية تقول : (ان فمك يستذنبك لا انا ، وشفتاك تشهدان عليك) والآية الكريمة تقول : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) (٣) .

وفى أمثال العهد القديم مثل يقول : (الرب بعيد عن الأشرار ويسمع صلوات الصديقين) والآية الكريمة تقول : (ان رحمة الله قريب من المحسنين) (٤) .

---

(١) الآية : ٤٠ من سورة « الاعراف » .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الفرقان ، والآية ٣ من سورة يونس ، والآية ٤ من السجدة .
(٣) الآية ٢٤ من سورة النور .
(٤) الآية ٥٦ من سورة الأعراف .

حكمة الأديان الحية

ومن آيات الانجيل : (ليس نبى بلا كرامة الا فى وطنه وفى بيته) ونحن نعرف الحديث ، أو الأثر ، الذى يقول : « لا كرامة لنبى فى وطنه » .

ومن احاديث المسيح : (ان الله يقاوم المستكبرين ، أما المتواضعون فيعطيهم نعمة) والقرآن الكريم يقول : (ان الله لا يحب كل مختال فخور) (١) .

ومن أحاديثه : (المعطى أسعد من الآخذ) ومن أمثالنا العربية : « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

وفى الديانة « الهندوسية » آيتان تقول أولاهما : (الهدايا التى تمنح عن تلطف تجعل للعطاء ضعف الاعزاز) والثانية تقول : (الهدية المتسمة بالأنانية أو التى تستهدف غاية أو المبطنة بالعداء فهى هدية ملوثة بدافع شرير) والقرآن الكريم يقول : (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) (٢) .

وفى أمثال التوراة مثل يقول : (لا تقل لصاحبك : اذهب وعد فأعطيك غدا وموجود عندك) ونقرأ سورة الماعون فنجدها تقول : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

(١) الآية ١٨ من سورة لقمان ، والآية ٢٣ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .

المظهر والجوهر

وقد حرصت الأديان كلها والعقائد على أن تجعل من الدين جوهرا يهذب النفس ويربى الضمير ويجعل منه رقيبا ومهيمنا على كل فكر وعمل ، لا أن يتخذ الناس منه مظاهر وصورا وطقوسا وأشكالا لا تربى ضميرا ولا تهذب نفسا ولا تسيطر على فكر أو عمل ، أى نفاقا وتظاهرا ورياء .

لذلك نجد حديث « المظهر والجوهر » هذا يقال ويؤكد فى آيات هذه الأديان ووصاياها وأوامرها ، نجد حديث المظهر والجوهر هذا فى آية من آيات الديانة الجانتسية تقول : (ومن تعاليم السيد « ما هافيرا » أن الخلود يمكن الوصول اليه بقبول الجواهر الثلاثة للروح وهى: الاعتقاد الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ، والسلوك الصحيح ، **والأخير منها ، أى السلوك الصحيح ، له الأسبقيه ، لأن الخلاص لا يمكن بلوغه بالصلاة ولا بتقريب القرابين** وانما بصالح الأعمال التى يأتيها الانسان عن فهم وعقيدة فحسب) ، ومن آياتها : (لو كان الكمال يدرك بالاغتسال لبلغت المخلوقات المائية الكمال) .

ونجد حديث المظهر والجوهر فى مثل من أمثال التوراة يقول : (لا ينفع الغنى فى يوم السخط ، أما البر فينجى من الموت) وهو شبيه بقول الله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم (٣) . ومن أمثالها = « التوراة » .

(مزقوا قلوبكم لا ثيابكم) .

ونجده فى كلمة السيد المسيح : **(الديانة الطاهرة التقية عند الله الآب هى هذه : افتقاد اليتامى والأرامل فى ضيقهم ، وحفظ الانسان نفسه بلا دنس)) .**

وكلمته الأخرى : **(ما المنفعة يا اخوتى ان قال ان له ايمانا ولكن ليس له أعمال .. ؟** هل يقدر الايمان أن يخلصه ...)

وآيات أخرى كثيرة وقصص « أوردها الكتاب عن المسيحية تؤكد أن الجوهر والقلب والعمل الخير هما صميم الديانة ومقصودها

(٣) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

وغايتها ، كتلك الأمثال التى تحدث فيها المسيح عن : « الرجلان اللذان صلبا » و : « الفعلة فى الكرم » و : « اختبار الأعمال » ، وغيرها .

ونجـد حديث المظهر والجوهر فى الديانة الهندوسية التى تقول آية « من كتابها المقدس : (**من كان روحه خالصا** وقلبه مكرسا للحقيقة **فان كل عمل يصـدر عنه يكون قربانا ويغدو رمادا طـاهرا على المذبح المقدس**) وتقول آية أخرى منه : (بعض الناذرين يجعلون قرابينهم جسدا ودخانا ، أما البعض الآخر **فيوقد نارا بسيطة ويؤدى شعائر خالصة**) وآية أخرى **تقول : (كل من يقدم لى تقدمة عن ايمان ومحبة ، وان كانت وريقـة أو زهرة أو ثمرة او سـكبة ماء ، فانى اتقبلها اذا كانت خالصة عن حب وتقى)** .

ونجد فى « البوذية » آية تقول : (من يرغب فى ارتداء جبة الراهب قبل أن يطهر نفسه من الخطايا غير خليق بذلك الرداء) وأخرى تقول : **(لا العرى ، ولا الأقفال الصدئة ، ولا الأوساخ ولا الصوم ، ولا افتراش الثرى ، ولا الجلوس دون حراك تطهر الانسان الذى لم يتغلب على شكوكه)** وأخرى تقول : **(شعر اغبر وكساء من الجلد لا يصنعان ناسكا)** .

وفى الديانة « الشاوية » آية تقول : **(ان الله لا ياخذ الاجابات بالكلمات)** .

اما الاسـلام فنحن نحفظ أو نقـرأ ما فى القرآن والحديث من ذلك ، وان كان المؤلف لم يبرز ذلك ابرازا كافيـا فيما اختار من الآيات والأحاديث .

ومظاهر مخالفة :

وبعد أن نجد بين هذه الأديان العشرة هذه المظاهر كلها من التوافق والتوحد .

نجد بعض مظاهر أخرى من المخالفة ، وقد يكون مرد ذلك الى البيئـة والتقاليد وأعراف الناس ، وابرز ما نجد منذلك نراه فى مكانة المرأة والنظرة اليهـا والحكم عليهـا ، فاكثر هـذه الأديان تنظر الى المرأة نظرة مقيتة .

ومن آيات الديانة البوذية عن المرأة : (لعن الحب الذى يورث الألم ، ولعنت الأرض التى يحكمها النساء (١) ولعن المأفون الذى يخضع لنفوذ المرأة) ومنهـا : (على الرجل أن يهرب من النساء عندما يعرف حقيقتهن . من يخدمنه من أجل الذهب أو الشهوة يحرقنه كالوقود فى النـار) .

ولكن البوذية لا تضن على الزوج الصالحة بالثناء ، ففيها آية تقول : (الزوجة المشاركة فى السراء ، والضراء جديرة بأن تكون زوجة الملك) ولا تتردد فى أن تخضع الرجل لمقاييسها ونقدها كالمرأة فتقول : (يصعب العثور على الزوجـة المحبة ، كما يصعب العثور على الرجل الرءوف بزوجته دائما) .

ونجد الديانة « الجانتسية » أشد قسوة على المرأة واكثر امعانا فى تجريحها واتسامها اذ يقول : (فى قلب النسـاء رجل واحد ، وفى كلماتهن آخر ، ثم فى أحضانهن آخر ... !)

أما « اليهودية » فتحض على اكرام المرأة فى آية من التلمود تقـول : (أكرم زوجتـك تزدد حياتك خصبا) .

وأما « الاسلام » فقد سلك مسلكا وسطا وان كان أقرب الى تقدير المرأة وانصافها وحسن الرأى فيهـا : نجد أحاديث صحاحا عن النبى عليه السلام تتحدث عن المرأة فتقول : (استوصوا بالنساء خيرا) (لا يجلد أحـدكم امرأته جلدة العبد) ، (خياركم خيركم لنسائكم) (الدنيا كلها متـاع ، ومتاع الدنيا المرأة الصالحة) ، (ما استفاد المؤمن ــ بعد تقوى الله عز وجل ــ خيرا من زوجة صالحة ؛ ان أمرها أطاعته ، وان نظر اليها سرته ، وانأقسم عليها أبرته ، وانغاب عنها نصحته فى نفسها وماله) ، (حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة) .

ملاحظات ومآخذ

من هذا العرض ، الذى أراه كافيا ، نعرف أن « حـكمة الأديان الحية » كتاب من الكتب

(١) فى (الحديث الشريف : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

حكمة الأديان الحية

الموحية ، فقد جاءت الأديان أصلا لتهذيب الناس ونشر السلام والمحبة والصفاء بينهم ، ثم انتفضت على نفسهـا ــ أو انتفض كثير من رجالها عليها ــ **فصارت ، أو أصاروها هم ، كما يقول المعرى ،**

« ألفت بيننا ــ نحن اخوة البشرية ــ

احنا ، وعلمتنا أفانين العــداوات » ،

ثم يجيء هذا الكتاب وأمثاله فيعود بالناس الى وحى الديانات الأول من انشاء السلام والمحبة والصفاء .

ولكن الـكتاب ، الذى كان يجب أن يجيء مبرءا من كل عيب ، فيه آفتان كبريان : سوء الترجمة وكثرة الخطأ .

وقد رأينــــا فى هذا المقال بعض مقتبسات من الكتاب ، وفيها نجد ما فى الترجمة من القلق والضعف والغموض ، على أننا نورد بعض فقرات اخرى تبـــدو فيها هذه الآفات أقوى وأوضح ، **فهو يقول « ص ١٩ » : (... وأن يفهم الدافع الذى حــــدا بالأمير (كاوتاما) الى تلك النبذة العظمى ، وأن يدقق فى اطار من الرحمة دورات الولادة والشيخوخة والمرض والوفاة) .**

ويقول « ص ١٢٣ » : (**وهنالك من نبذوا علمهم لشهوة أو لأخرى مما تؤدى بهم الى عبادة آلهة ادنى شــأنا بشعائر مختلفــة مدفوعين بما جبلها فالى هؤلاء جميعا : « ليعبــدوا أى معبد شاءوا وعلى أية شاكلة أرادوا وبايمان ــ أنا الذى امنحهم الايمان ــ وأنا راض بذلك**) ويقول « ص ١١١ » : (**يطلق الغربيون تسمية « الهندوسية » على الدين القديم جدا والذى هو بالغ التعقيد الذى تعتنقه غالبية سكان الهند**) .

ويقول « ص ٢٣٧ » : (وأوجه الكمال هذه النابتـــة الحاجـــة الممارسة يوميا غدت روح التعاليم الشتوية) .

ويقول « ص ١٥٤ » : (وغريب حقـــا أن يغدوا هذا الدين التوحيدى العام مقصورا على زمرة من النــــاس تكتلت لمحن اقليمية بحتة ، بالرغم من أن أحكام الديانة الموسوية كانت حرية بالقبول من جانب طوائف كثيرة . وكدليل على ذلك هـــو أنه فى الوقت الذى لا يكون معتنقو الموسوية الا أقل من نصف واحـــد بالمائة من الجنس البشرى فان نداءها العام كان وسيلة للتحريض فى دينين عظيمين همـــا المسيحية والاســـلام « اللذين » يدين بهما قرابة نصف البشر) .

ويقول « ص ٢٥٧ » : (على أن هـــــذا الدين = « الزردشـــتية » يهمنا الآن باعتباره ذا تأثير على الديانات التوحيـــدية الـكبرى : الموسوية والمسيحية والاسلامية كما أنه يزودنا بسجل لأقدم تلمس التوحيدية) .

ونجد كثيرا من الكلمات **قد اسيء اختيارها** او وضعت فى غير موضعها : **نجد كلمة : « أوجد »** فى هـــذا التعبير : (**وفى عام ١٩٤٥ أوجـــد** مطبعة ... الخ) وكان خيرا لو وضع بدلها « أنشأ » « ص ٥ » . ونجد كلمة : « **اصطبل** » « ص ٣٢ سطره » وكان خيرا من ذلك ان يقول : « حظيرة » .

ونجد هذا التعبير : « **ص ٤٤** » : (**اذا ساد التضـــامن بين الطيـــور استطاعت أن تحلق بالشـــبكة**) وهو يريد **أن يقول** : « **تفلت من الشبكة** » .

ونجـــد هــــذا التعبير : « ص ١٣١ » : (... **وأساطير ... معروفة ومشغوف بها**) وكان أفضل وأيسر أن يقال : « **محبوبة** » .

ونجـــد هـــــذا التعبير : « ص ١٤١ » : (**والجانتسية كدين وكنظام أخلاقى منزل يحتوى عددا كبيرا من الغرف**) .

اما أخطاء الأسلوب والصياغة فهذه أمثلة منهـــا :

ص : ٦٠ : (**يشبه أولادا جالسين فى الأسواق**

ينـــادون الى أصحابهم » والصحيح : ينادون أصحابهم .

ص : ٧١ : (شـــجرة التين العقيمـة) والصحيح « العقيم » و : (... أزواج بقر وانا « ماضي » لامتحنها) .

والصحيح « ماض » .

ص : ٩٣ نجد المترجم يجمع « العائلة » على « عوائل » ويترك الكلمة المتـداولة الصـحيحة : « عائلات » .

ص : ٩٦ نجد هذا الكلام : (وتجعل البشر اجتماعيا) .

ص : ١٠٥ : (والوضيع «منفور» الخ ...) وهي « مكروه » أو « مبغوض » .

ص ١٠٦ : كلمة نفـــاذ الصبر ، وصحتها نفـــاد .

ص ١٢٥ : لا « تضيق » بهم ، وصـحتها يضق .

ص ٢٣٥ : نجـد تعبيرا فاشيا ولكنه خطأ يقع فيـــه كثير من الكتاب هو : (بل وحتى) وصحته : بل حتى .

اما الخطأ في الطبع فشيء كثير .

وفي بعض المختارات التي انتقاها من كتب الأديان العشرة نجد تكرارا لبعض الآيات في أكثر من موضع ، كما نجد في ص ٦٨ مع ٧٧ ، ٧٦ مع ٨٩ ، و ٧٠ مع ٧٧ وغيرها . بل هناك آية واحدة تذكر في ثلاثة مواضع ، كما نجد في آية الانجيل : (لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ، بل المرضى) فهي موجودة – بلفظها أو معناها – في الصفحات : ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٨ .

وسنجد مثل ذلك في حديثنـــا عن حديث الرسول الكريم .

اما الأخطاء التي أفزعتني وأسخطتني فهي تلك التي نجدها في الحديث عن الاسلام ، فهناك أخطاء فادحة كثيرة في الآيات القرآنية عجبت من فداحتها وكثرتها . ولم ينقص من عجبي وسخطي الا شيئا يسيرا اني وجـدت « ملحقا » صغيرا مفصولا عن الكتاب تضمن تصحيحا لأخطـــاء الآيات وأسماء السور وأرقامها . على ان هـذا « الملحق » نفسه يتضمن تصحيحا لآيات لم ترد خطأ في الكتاب ، كما في ص : ٢١٣ الآية : وأوحى ربك الى النحل ... الخ) وفي ص : ٢١٦ الآية : (يا أيهـا الذين آمنو لا يســـخر قـــوم من قوم .. الخ) .

وفي تصحيحات هذا الملحق نفسه خطأ في رقم الآية (٦) من سورة الاسراء : (ان أحسنتم احسنتم لأنفسكم ... الخ) « ص ٢ من الملحق » فهذه الآية هي السابعة لا السادسة من السورة .

وهناك نقص أســـاسي كان يجب أن يتلافاه المؤلف او يتداركه عليه المترجم والمراجع ، فهو يذكر « ص : ٢٠٦ – ٢٠٧ » بعض الوصـــايا والأوامر التي تضمنها الاسلام ، ثم يقول : (هذه كلها و « اعمدة الاسلام الخمسة » هي الأساس الجذري للاسلام) ثم لا يقول واحد من الثلاثة ما هي أعمدة الاسلام الخمسة هذه .. ! ولا شك في أن حديثا عن دين لا يذكر « أعمدة » هـــذا الدين هو حديث ناقص قاصر مبتور .

خطأ تاريخي وموضوعي :

وفي هذا الفصل عن الاسلام اخطاء موضوعية وتاريخية يقع وزرها على المؤلف ووزر بعضها على المترجم والمراجع :

في ص : ٢٠٣ يقال ان مكة مدينة مقدسة : (لأن آدم اتخذها مسكنا بعد طرده من الجنة) وان الكعبة تقوم على (مركز الكرة الأرضية ، وفي البقعة نفسها التي اقام عليها آدم خيمته) وأن الحجر الأسود جاء به آدم من الجنة . وهذا كلام قد نجده في بعض الكتب ولكنا لا نجده في القرآن ولا في صحاح الأحاديث ، بل هو من لهو العامة ولغو بعض « العلماء » .

وفي هامش هذه الصفحة نفسها نجد خطأ في الآية : (أفرأيتم اللات والعزى ... الخ) .

وفي ص : ٢٠٤ يقول المؤلف ان النبي عليه السلام لم يرزق من السيدة خديجة بغير فاطمة ، وهو خطأ واضح يقع وزره على المؤلف ، فقـد صحح في هامش الصفحة .

وفي ص ٢٠٥ صحح الهامش ما وقع فيـــه

حكمة الأديان الحية

المؤلف من خطـــأ فى اسـم كاتب الوحى زيد ابن حارثة .

وفى هذه الصفحة نفسها نجد خطأ واضحا يقع وزره على المؤلف والمترجم والمراجع جميعا ، فقــد ذكر أن القرآن الكريم قد رتبت سوره ــ ما عــدا الأولى منها ــ على حسب حجمها : (مبتداة بالأطول الى الأقصر) ، والخطأ فى ذلك واضح لو خفى على المؤلف ، الذى ذكر أنه ترجم آيات القــرآن عن الانجليزية وانه لا يعــرف العربية ، فما كان يجب أن يخفى على المترجم والمراجع فســور القرآن لم ترتب على حسب طولها كما زعموا ، فنحن نجد ، مثلا ، ان سورة « الأنعام » وآياتهــا (١٦٥) تجىء بعد سورة « المائدة » وهى (١٢٠) آية وبعدهما سورة « الأعراف » وهى مائتان وست من الآيات ، ثم تجىء سورة « التوبة » فى مائة وتسع وعشرين آية ، وقبلها « الأنفال » فى خمس وسبعين .

ونجد سورة « الحجرات » ، مثلا ، فى ثمانى عشرة آية وتليهــا سورة « ق » وآياتها خمس واربعون .

وهكذا جاء ترتيب القرآن : « آياته وسوره » لا يلتزم توقيت النزول ولا طول السور وقصرها :

« أى كذا خلقت » لم يذكـر له سبب مقبــول ولا علة .

وفى الفصل الخاص بالحديث نجـد تكرارا وخطأ ، فالحديث :

(لا يؤمن أحـــدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) موجود فى ص : ٢٢١ و ٢٢٦ . وحديث : (الأجر على قدر النصب) ــ لو كان حديثا ــ مكرر فى ص : ٢٢٥ و ٢٢٩ . والحديث : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) موجود فى ص ٢٣٢ والصفحة السابقة عليها . والحديث : (انما يرحم الله من عباده الرحماء) مكرر فى ص واحدة ، هى ص ٢٢٧ .

وفى بعض الأحاديث أخطاء ، مثلا : (علموا وسروا) « ص ٢٢٣ » صحتها « ويسروا » . وحديث (والساعة « أو هى » وأمر) «ص ٢٢٤» صحته : « أدهى » . وفى الحديث : (أتدرى ما هو حق الجار ؟ .. الخ) « ص ٢٢٦ » : (ولا « تستطيل » عليه فى البنيان) وصحته : ولا « تستطل » .

ونجــد فى صفحتى ٢٢٨ و ٢٣٠ أرقاما لأحاديث ثم لا نجد الأحاديث .

ونجد فى صفحتى : ٢٢٤ و ٢٢٩ اسم « ابن الجوزى » بين المحدثين أصحاب الكتب الصحاح وهو ليس منهم ، كما نجد بين هذه الأسماء : « ابن لال » ولا ندرى من هو « ابن لال » هذا !

وهذه أشياء قد يبدو بعضها يسيرا ، ولكنه دليل على التهاون والتقصير فى اخراج هذا الكتاب القيم والعناية بتقديمه لقراء العربية .

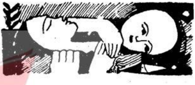
محمود الشرقاوى

الشعر العربى وروح العصر

تأليف

جليل كمال الدين

الناشر : دار العلم للملايين (بيروت)
٤٧٠ ص ١٧×٢٤ سم الثمن ٦٠ قرشا



مؤلف الكتاب ناقد واع ، واذا كانت له ايديولوجية خاصة ، فان هذا لا يعنينا الا اذا تحكمت تلك الأيديولوجية فى عمله النقدى فخرجت به عن جادة التقويم . وهو يعرض فى كتابه لستة شعراء معاصرين فى العراق والشام ومصر عرضا تحليليا ، ولعله يهدف من وراء هذه الدراسة الى اكثر من مجرد العرض التحليلى ، اعنى انه يهدف الى ايضاح الخطوط المتوازية التى يسير فيها الادب فى العراق والشام ومصر ليقول ان الادب فى الوطن العربى ينبض عن وجدان فرد واحد . واذا كان المؤلف لم يصرح بذلك ، ولم يخصص جانبا من دراسته لايضاح ، فلا نعدم ان نجد هنا وهناك خلال الدراسة ، حديثا عن التماثل البيئى فى القاهرة وبغداد وبيروت . وهو يضع مقاييس لنقده اكثرها يتعلق بمضمون القصيدة .

فرسالة الشعر عنده تمجيد الانسان والنضال فى سبيل اسعاده ، والقصيدة الثورية مصدرها فى العواطف المبنية على ضرورة العيش وانتاج الحياة من جديد .

ولا يعنى هذا ان قصيدة الغزل قد انعزلت عن تيار الشعر بهذا المفهوم ، فهى تعبير آخر عن النضال من اجل الحياة . كل هذا نستطيع ان نسيغه فى الحقيقة ، ولكننا لا نستطيع ان نقبل فى سهولة رأى الناقد الذى هاجم فيه الشعر الذاتى وفردية الشاعر الذاتى وفردية الشاعر لأن الفنان الحق عنده هو الذى يعبر عن مشاعر الجماعة . كأنما قدر عليه ان يكبت مشاعره الخاصة فى حناياه الى الابد ليصبح داعية أو واعظا .

على ان الفنان الصادق فرد من المجتمع فهو حين يعبر عن مشاعره الذاتية انما يعبر عن مشاعر جانب من المجتمع الذى يتفاعل معه سواء اراد او لم يرد ، وسواء فرضنا عليه قانون الناقد او حررناه منه .

ونحن لا نستطيع أن نتلمس صورة العصر من تعبير الشاعر المباشر فكثيرا ماوجدنا الشعراء الذين عبروا عن مشاعرهم الخاصة أصدق تصويرا وادق تعبيرا عن حنايا المجتمع من الشاعر « الواجهة » ، مثلما نجد ذلك فى خمريات ابى نواس وفى الحان المتنبى الحزينة .

على أن الناقد لا يكبل الشاعر بقيد الالتزام الأدبى كما قد يتبادر الى اذهاننا ، وانما هو يكبله بقيد التزام ايديولوجية معينة ، فاذا حاد عنها قيد انملة فهو شاعر بربرى مثل « نزار

قباني » او هو شاعر متخلف ارتد عن التقدمية وقيمها ولم يعد يدافع عنها مثل « بدر شاكر السياب » ومن اجل ذلك يرفض شعرهما ، او هو ينقد شعرهما ليرفضه في النهاية ، مثلما صنع مع « نازك الملائكة » حين اتهمها بالارستقراطية لأنها لم تعان في نشأتها التشرد والشقاء والاضطهاد .

وفي نظر الناقد ان البياتي هو الشاعر المبشر بتقدم الانسان من اجل ذلك يتوقف طويلا عنده محاولا ان يفك رموز قصائده . فالقرية رمز الحرية والانطلاق والبراءة ، والمدينة اشبه بهرة سوداء تأكل بنيها ، والقرية بمعنى آخر رمز للشرق البريء امام الغرب المفترس الذي يرمز له البياتي بالمدينة او بالهرة السوداء ، من اجل ذلك نجد القرية عند البياتي مخلص رومانتيكي . وقرية البياتي اشبه شيء بقرية الشعراء المصريين عبد الصبور وفوزي العنتيل وحسن فتح الباب .

والأطفال عند البياتي بؤرة مركزية ينسج منها قصائد في استبشاع الحروب والثورة ضد الاقطاع والاستعمار ، لأن الحرب والاقطاع والاستعمار تفترس الأطفال ، كذلك يتخذ الشاعر الأطفال رمزا لعالم الأرض الثقة ، أرض المستقبل الذي يحلم به . هذه الرموز فسرها الناقد من خلال دراسته لديواني « عشرون قصيدة من برلين » و « كلمات لاتموت » ، وكان الأجدر به ان يفسرها من خلال دراسته لديوان « المجد للأطفال والزيتون » وهو الديوان الذي خصصه الشاعر لهذا الموضوع .

والشاعر دائب الحديث عن الرحيل والغربة والمنفى ، وهو شاعر جواب مغترب في واقع حياته ، ولكن الناقد يرى ان اغتراب الشاعر وحديثه المتصل عن الرحيل ، فيه معنى ابعد من مجرد تصوير تجربة واقعية عاناها البياتي ، فيه معنى الانطلاق من كل الأغلال الى باب الحرية الواسع ، بل فيه التمرد على القدر الظالم الذي دفع الشاعر الى صراع مستمر لا يهدأ الا ليبدأ من جديد .

والمرأة عند الشاعر بطل من ابطاله فهو يؤمن بالانسان وقضية الشعر وقضية الحب على أنها قضية واحدة هي قضية الجمال والحقيقة ، ولذلك يمتزج حب الشاعر بنضاله ، وهو يستقطب المأساة العامة عبر المأساة الخاصة وهي الحب ، وكذلك فعل معظم شعراء الواقعية في الوطن العربي . هكذا يقول الناقد ولكن الواقع ان الدارس لغزل البياتي لا يكاد يعثر على هذا الحب البطولي ، فهو صريع الأعين الزرق في اوربا ، ومن اجل ذلك لا يمكن ان يكون هواه نضاليا كما اراد له الناقد . على ان الأمر يتعلق بما هو اهم من ذلك ، فاذا كان رحيله الى اوربا من اجل العيون الزرقاء ، واذا كان تمرده سلبيا بحيث لا يجد أمامه الا الاغتراب والرحيل ، بل اذا كانت القرية مخلصا رومانتيكيا ، فكيف نستطيع ان نصنع لشاعر النضال ورائد الواقعية ؟

اما نازك الملائكة فهي في نظر ناقدنا نموذج الحزن السيزيفي او هي الحلزون في انعزالها الكامل عن احداث العصر . اعطت نفسها كما وكيفا للتراث القوقع ، ولم تعط شيئا للمجتمع والوطن والأخ والرفيق ، فهي رومانتيكية كئيبة . فاذا ماوجدنا لها بضعة ابيات خرجت من هذا القوقع ، تأكدنا ان بروميثيوس الانسان المجاهد المظفر قد تسلل الى نازك خفية ، بعيدا عن ارستقراطيتها . وحتى هذه القصائد الثورية هي في نظر الناقد صدى لتمردات نازك في قفص الذات .

اما راسمالها فهو تكنيك القصيدة التي تعتني به وتجود فيه وتزوقه بالتنويع النغمي . وهي تحتضن اكثر مقومات الشعر لدى التصويريين خاصة فيما يتعلق بالالتفات الى جزئيات الصورة الشعرية . وهي تلح على التكرار كحاجة نفسية وليس كتزويق عاجز فكثيرا ما كررت الحرف والكلمة والبيت والمقطع . وعندما تفرغت نازك لشعر الذات استطاعت ان تتعمق في الاستبطان وتغوص في حقائق النفس ، وهذا بخلاف استخدامها للرمز فهو عندها بسيط سطحي غير موح .

وينتقل الناقد بعد ذلك الى بدر شاكر السياب فيراه شاعرا متمكنا من عدته الشعرية، وهو ممن يتمتعون بثقافة شعرية ويتقنون لغة أجنبية ويفهمون « اليوت » وتجربته . وقد مر الشاعر بفترات مختلفة ، فكان رومانتيكيا هائما فى « أساطير » و « أزهار ذابلة » ، ثم كان تقدميا فى « أنشودة المطر » و « الأسلحة والأطفال » و « المومس العمياء » و « حفار القبور » ، اما فى « جيكورياته » فيبدو قوميا ، ولكنه مالبث أن نفض يديه من الجميع ليتصل « بمجمع شعر » الوثيقة الصلة بالقوميين السوريين . والحقيقة أن اتهام الناقد للسياب يرجع الى انفصاله عن الالتزام الماركسى مما أثار النقاد الماركسيين فرموه بهذا الاتهام كما رموه بالتخلف عن طريق التقدميين ، وليس هناك دليل مقنع لارتباطه بالقوميين السوريين .

على أن الناقد ينصف الشاعر فى كثير من الأحيان ، فهو عند الشاعر المأساة الانسانية فى ثورته على العقم وطلب الخصب والمطر وثورته على الحرب والتغنى بالسلام وتصوير المأساة الانسانية بنفس ملحمى فى صراع قابيل وهابيل وصراع الغنى والفقير وصراع الشعوب ، ومن الواضح انه تأثر فى خطوطه العريضة « بايديث سيتويل » وان تكن الشاعرة قد اهتمت بالانسان المجرد غير المحدود بوطن أو بيئةمعينة.

ويفتقر الشاعر ازدواجيات عدة كالقرية والمدينة ، اليأس والأمل ، العودة والانطلاق ، الحزن والفرح ، الثورة والارتداد وهذه الازدواجيات هى التى تحتفظ لقصائده بمغزاها الانسانى .

فاذا نظرنا الى جيكور مثلا وهى القرية التى عاش فيها الشاعر صباه الى جوار البصرة ، وجدناه يتمثل العالم الأمثل ، وهو فى ثورته على المدنية الظالمة ميتمة الأطفال خائنة الله ، انما يلمح الى هذه القرية الانسانة التى ترمز الى طفولة البريئة والى الفلاحين الشجعان الكرماء الى الأخلاق والمثل العربية . ويتمثل كل آفات البشر فى جيكور حين يتحدث الى ولده « غيلان » ويمنحه كل غنى عاطفة الوطنية ويقدم لنا انموذجا لأطفال الغد السعداء ، مستعينا على ذلك بالأساطير والفولكلور .

والحقيقة أن استخدامه للأسطورة كرمز قد تجاوز حده ، فدفنته الأسطورة وابتلعته ، وكان يريدها مسعفة معينة على تعميق التجربة ، ولكننا نلمس وحدة نموذجية بين الشكل والمضمون مما يمكن أن نعبر عنه بالنضوج الشاعرى وبالعيش الخصب للتجربة والوحدة العضوية الحية .

واذا كانت المراة وجها من أوجه الشعر النضالى عند بعض الشعراء المعاصرين ، فان المراة عند نزار قبانى حبيبة لا تتجاوز هذا الحد . صحيح ان المراة نصف المجتمع ، ولكن الغزل قضية فردية خاصة ان الشاعر لم يحاول ان يربط التجربة الخاصة بالقضايا العامة كما يصنع الشاعر الملتزم ، وعلى هذا فنزار قبانى ليس واقعيا انسانيا وانما هو شاعر يتغنى غناء البلبل .

وكل ما استطاعه ــ لأن تجربته تتكرر يوميا وتتكرر فى أغلب قصائده وتتكرر فى كل دواوينه ــ هو ان يدقق فى خفايا المراة ويكشف خباياها .

وكل ما يلفت نظر الناقد أيضا فى شعر هذا الشاعر الذى تنام قصائده على وسادةالمراهقات هو تضخم الذات والنرجسية الواضحة (لن تصبحى كبيرة الا بحبى الكبير) (غدا يرانى الناس فى شعره) .

ولكن الواقع أيضا ان نزار قبانى فى دواوينه الأخيرة بدأ يستمع بشغف الى صوت الانسان الآخر فيه وحوله وبدات المراة وعالمها معا يتخذان عنده صوت الانسان الباحث عن الحقيقة ولكنه لم يستطع ان يتخلص تماما من هيامه الرومانتيكى الذى لم يعد له مكان فى عصرنا الذرى ، عصر المأساة المتفتحة نحو الثورة والاشتراكية والحب والعطاء .

ويخصص الناقد فصلا صغيرا للشاعر خليل حاوى الشاعر اللبنانى ، وهو شاعر متقلب فى موقفه السياسى ، فقد كان فى يوم ما

قوميا سوريا ثم ارتد ، ولكن الناقد لا يحمل عليه حملته على السياب ، لأن السياب هاجم الالتزام الماركسى ، وذلك وحده سر غضبة الناقد الكبيرة .

اما خليل حاوى فلا يلتفت الناقد الى « ايديولوجيته » بل يقف عند مضامين شعره وحدها . وهو شاعر كبير فى نظره بالرغم من ان مضمونه لا يخرج عن المغامرة بعد الرفض والابحار بعد طرح الزيف ، زيف الركود فى اوحال الشرق وأسماله وهو مضمون مكرور لدى كثرة من الشعراء المعاصرين .

فخليل حاوى ــ كما يقول الناقد ــ يبحث عن اشراقة الخلاص ، والحقيقة عند الشاعر تعنى بدء الخلاص ــ فهو يرفض عالما ماديا غير شعرى يحيط به من كل جهة ويخنق فيه الفناء . امام الشاعر عهدان ، عهد قديم وعهد جديد ، ومع ذلك فلا فائدة من احدهما أو من كليهما . العالم القديم عالم الدراويش والتحذير والعالم الجديد عالم الفول والذرة فأين الحقيقة ؟ ليطوف فى بحار الذات وفى بحار المعرفة على اشراقة خلاص تومض . وهو ــ كما يقول الناقد ايضا ــ يحلم بعالم جديد مركزه الشرق الخصيب المعطاء ، على ان يضيئه نور من جيد كنوز الغرب . ولكن احتفاء الناقد بعالم الخلاص الجديد للشاعر هو الغريب حقا لأن المضمون مكرور معاد كما قلنا منذ كتب المويلحى «حديث عيسى بن هشام» . والمغامرة اقدم من ان تكون العمل الثورى المخلص ــ كما يرى الناقد ــ لأنها مكرور ايضا منذ عروة بن الورد « ذرينى اطوف فى البلاد لعلنى » . فماذا يعنى بالرحيل اذن ؟ أهو لا انتماء ؟ ان كان كذلك فهو ايضا مسبوق «ببرنارد شو» فى كتابه «عربة التفاح» .

واخيرا يصل الناقد الى الشاعر المصرى صلاح عبد الصبور . وهو شاعر حزين ، ولكن حزنه ليس نوعا من الحزن الايليوتى الهارب نحو الكنيسة ، ولكنه حزن واع ، أو هو السأم يصل الى الفجيعة العمياء ، فجيعة الشاعر المدرك البصير ، لما حوله من تفسخ ورعب . هذا هو محور المضمون كله فى دواوين صلاح عبدالصبور فكيف عبر عنه ؟

ان شعر صلاح فيه مباشرة ونثرية ، وهو يعشق الابهام والغموض، مع انه لا يستطيع الا ان يكون واضحا . ومن اجل ان يعمق تجاربه او يزيدها غموضا يلجا الى الحكم ولكنها تاتى مباشرة كالمواعظ مع أن المفروض ان يكون ادخالها بحيث ترتبط بمجموع القصيدة عضويا، ومن اجل ذلك يتفوق عليه عبد المعطى حجازى فى مستواه الفنى كله .

والحقيقة ان الناقد كثير الالقاء بالأحكام الكبيرة دون تدليل ، ولو قارن بين شعر عبد الصبور وشعر حجازى مقارنة موضوعية وخرج بهذه النتيجة مثلا ، لاستطاع أن يقنعنا، ولكنه كما قلت يلقى القول على عواهنه دون دليل قاطع .

ولولا مثل هذه الملاحظات التى يرجع اغلبها الى تعصب الناقد لأفكار سابقة او مواقف ايديولوجية معينة جعلت احكامه تتسم فى بعض الأحيان بالبعد عن الانصاف ، بل جعله يهتم بالمضمون الشعرى على حساب الشكل الذى قلما التفت اليه ــ مع أن الشعر شكل ومضمون معا ان لم نقل ان الشكل اصلا هو الذى يحدد ويفرق بين فن وفن ــ اولا ذلك لكان كتابه من اخطر الكتب النقدية التى ظهرت فى هذه الأيام لما يتسم به من تحليل عميق وثقافة واسعة وصبر طويل على البحث .

الدكتور ماهر حسن فهمى

مقالات فى النقد والأدب



اذا استعرض الناقـــد كتابا من كتب الادب او الفكر ، سهل عليـــه ان يلم بشخصية كاتبه ومنهجه ، وان يناقشه الحساب فيما تضـــمنه كتابه من آراء .

ولكن هذا الأمر يصعب جدا ان كان الكتاب نفسه مقالات فى النقد ، ذلك لان كاتبه لا يوضح رأيه الا من خلال موضوعات الكتاب الآخـرين وآرائهم ومناهجهم ، فكأن الذى يستعرض مثل هذا الكتاب مضطر الى الرجوع الى هذه الكتب والدواوين جميعا ، والى التقاط شخصية صاحب الكتاب من جو الكتاب لا من كلماته الصريحة .

وهذا هو ما لقيته عند مراجعة كتاب الدكتور لويس عوض الذى جمع فيه خمسة وثلاثين مقالا فى المجتمـع والفكر والادب والشعر والمسرحية والقصة بين تراث قديم وانتاج حديث .

والناقد بحكم كونه ناقـدا اديبـا ، الا ان اول ما يلاحظه قارىء الدكتور لويس ان لغته تصح حيث تسهل الصحة وتخطىء فيما وراء ذلك ، فهو يستعمل ((افتقدنا)) فى محل ((فقدنا)) وهو يقول ((بعد ان ثكلت فى زوجها وفى اعـز ما تملك فى حروب الاستعمار العقيمة .)) حيث يريد ((نكبت)) بدلا من ((ثكلت)) التى تتعـدى بذاتها ولا تستعمل لفقد الأزواج والممتلكات .

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية
٣٩٢ ص ١٧×٢٤ سم ث ٥٥ قرشاً

واسلوب الكتاب لا يمكن ان يقال فيه الا انه فوق المسف فهو عيى كقوله « والفنان العظيم يعرف كيف ينقد نفسه ، ولقد لا يعرف كيف ينقد غيره ، أما الناقد العظيم فهو يعرف كيف ينقد غيره ولقد لا يعرف كيف ينقد نفسه » (ص ٣٣٦) ؛ وهو رطانة أعجمية مترجمة ترجمة ركيكة غير معربة كقوله : « كلما اقترب من الفوتوغرافية كلما ابتعد عن الخلق الفنى » (ص ٣٥٥) أو كقوله : « مسئولية عظيمة هى مسئولية المثقفين فى هذا الوطن » (ص ١٥٧) ؛ وعلى ذكر هذه الجملة نقول ان استعماله لكلمة « عظيم » قد تكرر بشكل يدعو للنظر لاسرافه الشديد كما كان المفعول المطلق عند المنفلوطى مثلا .

وهو غامض ملتو كلما احتاج الوضوح والجلاء الى مقدرة او مران كقوله : « واذا كان توافقا فى الآراء ما قاله مارسيلو دى بادوا مؤلف « حامى السلام » فى سنة ١٣٢٤ من ان الدولة كائن عضوى كجسم الانسان . له من الأعضاء والوظائف ما لجسم الانسان من اعضاء ووظائف وما قاله ابن خلدون من ان الدولة كائن عضوى يجرى عليها ما يجرى على الكائنات العضوية من قوانين الحياة . فهى تنمو فى شبابها وتنضج فى رجولتها (هكذا فى النص) وتهرم فى شيخوختها ثم تموت ويعقبها ما هو اقل منها عقلا ومدنية وأكثر منها فتوة وشراسة ، اذا كان هذا مجرد توافق فى الأفكار فلنكتف بهذا القدر ولنقل انه مجرد توافق فى الأفكار . » (ص ٤١) فهل فى اللغة كلها جملة اعنتت قارئها اشد من هذا العنت لكى تعطيه اقل من هذه الفائدة ؟

ولقد يعجب القارىء كيف يسوغ لمن لا يملك سلاح الأدب وآلته ان يقتحم ميدانه ، فليذكر القارىء اذن ان المسئولية فى هذا عليه لأنه هو وحده الذى يملك اسقاط الساقط من الكتاب فلا يقبل لهم كلاما . فلنترك هذا لما هو اهم واعجب .

والذى هو أهم وأعجب هو تلك الحيرة التى يحارها القارىء الجاد كلما حاول ان يكيف الشخصية الفكرية لصاحب الكتاب ، فبينما يقرأ له فى كتابته عن لطفى السيد انه لا يؤمن بالفردية والحرية الليبرالية التى كان يدعو اليها لطفى السيد وانه لا يتكلمها ولا يفهمها وانما هو يدرسها ويدرس صاحبها لأنهما مرحلة تاريخية لا يملك المؤرخ أن يزوى عينيه عنها ، يراه قد عاد الى الفردية متكلما فاهما مبشرا بها يعاب عنده الأدب المسرحى والقصصى ان هما قصرا فيها ولم يصوغا شخوصهما كما ينبغى أن تكون « كائنات عضوية حية وليست مجرد نماذج عامة أو انماط أو قوالب أو « أقنمة » تقليدية كما يقولون فى لغة المسرح » (ص ٢٦٩) وكأن الفردية يمكن ان تكون خطأ محضا يبرأ منه فى صدر السياسة والاجتماع ثم تكون هى المذهب الذى لا مذهب سواه اذا تحولت الى ميدان القصص المسرحى .

ثم هو بعد هذا وفوق هذا اشتراكى متطرف يؤمن بمبادىء الاشتراكية العلمية (وهو اسم علم على الماركسية وليس وصفا للاشتراكية بأنها علمية) فى مجال الأدب والثقافة على الأقل وانه قد سره « أن يدافع الأستاذ مفيد الشوباشى عن مبدأ الأدب للحياة والفن للحياة ، فقد ارتبط اسمى بهذا التيار الأدبى زمنا ... ولازلت على عهده بى وعلى عهد الناس بى اومن بأن الادب ينبغى أن يكتب فى سبيل الحياة . » (ص ١٣٥)

وهو يرى أن الثقافة الرفيعة لا يصح ان تظل رفيعة فضلا عن أن تزداد ارتفاعا ، بل يجب ان تنزل عن مستواها لتقابل العوام فى منتصف الطريق ، لأن هذا الازدواج بين ثقافة رفيعة وثقافة عامية « من غير شك من رواسب الماضى الحزين الذى قسم الأمة الى امتين : امة من الخاصة القادرة العارفة بالتراث الرفيع وامة من العامة الجاهلة بالترث الرفيع . » (ص ١٥٩) وعلى الدولة أن تكسر هذا الحاجز الطبقى فى الثقافة ، متنازلين عن بعض الرفعة والجمال فيها كما تنازلنا عن مثيلات لهما حين استبدلنا « الفولكس ڤاجن والرينو لتحل محل الرولز رويس وقبلت أن تأكل الطعام المعلب رغم أن طعمه سقيم ، فاذا كانت الانسانية المتحضرة ... قد قبلت أن تضحى كل هذه المستويات العليا فى

المرنة وفى الجمال وفى الراحة وفى الغـــذاء وفى أساسيات الحياة لتتيح مستوى أقل سموا لأكبر عدد ممكن من الناس ، فكيف لا يكون الحـــال كذلك فيما يخص الثقافة بوجـــــه عـــام ؟ » (ص ١٧٤ ـ ١٧٥) بعد كل هذا التنازل يطالعك بوجه آخر حين يقول : « وكما ينبغى أن تحـذر الثقافة الاشتراكية أولئك الذين يحكمون بالاعدام على الثقافة الشعبية بحجة سوقيتها ، ينبغى أيضا أن تحذر الثقافة الاشتراكية أولئك الذين يحكمون بالاعـدام على الثقافة الرفيعة بحجـة ارستقراطيتها وبعدها عن حاجات الجماهير ، فمن الخطأ الخاطىء أن ننظر الى الثقافة الرفيعة هذه النظرة الظالمة . » (ص ١٦٢) .

من من هؤلاء ياترى هو لويس عوض الواقعى الحقيقى ؟! العله وحده بين البشر الذى يستطيع ان ينظر بعينه اليمنى جهة اليمين وبعينه اليسرى جهة اليسار؟!وان كان ذلك فكيف يمكنه أن يمشى برجله اليمنى نحو اليمين وبرجله اليسرى نحو اليسار ؟! هذا تركيب للشخصية الفكرية عجيب عجيب .

ولســـــــت احب أن أظلم الدكتور ، ففى كتابه سمة واحدة على الأقل مطردة على نسق مفهوم وتلك هى انحاؤه باللوم على الأديان فى كل نقص او تقصير يظهـــر من الانسان فى تاريخه الطويل وتراثه العريق. فالسبب فى تقصيرنا نحن المصريين فى العنـــاية بتاريخ «مصر الرومانية» هو ان هذه المرحلة « تقع فى مصر الوثنية وقبل تغلغل اديان التوحيد فى بلادنا . » (ص ١٢٤) .

نعم قد عنينا بتاريخ اربعة آلاف سنة سابقة على هذه الفترة ، ولكن ما اربعة آلاف سنة ؟؟ ونعم ان هذه الفترة التى تنصب عليها المقالة هى فترة صراع «الشهداء المسيحيين» ضد الرومان الوثنيين ، ثم صراع زعمـــاء كنيسة الاسكندرية ضد كنيسة روما الكاثوليكية ، ولكن اى احترام للواقـــع واى حقيقة تاريخية لا يمكن اسقاطها او اغفالها أو قلبها راسا على عقب من أجـــل الهجوم على الاديان ؟!! وهل يمارى احد فى أننا قد عنينا بأربعة آلاف سنة وثنية واهملنا مائتى سنة توحيدية مسيحية الا لأننا لا نعتنى بمصر الوثنية ونقصر عنايتنا على مصر الموحدة المتدينة ؟!

هذا التحامل الذى يعمى ويصم ينشىء فى ذهن القارىء المهتم سؤالا مهما هو : هل الدكتور عدو للدين ام هو عدو للأديان ؟!

واضح أنه ليس عدوا للدين بوصـــفه ملكة عميقة الجذور فى النفس البشرية ، وهو يصرح بهذا فى سياق تفسيره لمسرحية «يا طالع الشجرة» بانها « الصراع بين عقل الانسان وروحه ، عقل الانسان الذى تمثل فى قيمة الفلسفية والعلمية ، وروح الانسان التى تمثلت فى قيمــــه الدينية والغيبية ، وربما الفنية أيضا . » (ص ٢٤٩) فهو اذن عدو للأديان . ولكن اى اديان ؟ ليست الا اديان التوحيد ، فهل عداؤه لليهودية ؟! انه لم يذكرها بكلمة خير ولا شر ؛ فهل للمسيحية ؟! كلا لأنه يمجدها ، يمجدها فى نقده «لجبهةالغيب» لبشر فارس ويمجدها فى جبران وتراث جبران ، ويمجدها فى سياق الكلام عن « يا طالع الشجرة » وعن « اقول لكم » لصلاح عبد الصبور ، ويمجد ابطـالها الذين قاوموا ـ وطنيين فى مقـاومتهم لا مسيحيين ـ نفوذ الرومان فى مصر ويمجـــد علماءها الذين علموا ابن خلدون وغرسوا فى ذهنه فكرته عن تطور المجتمعات ، كالقديس او غسطين وتلميذه اوروسيرس ابن القرن الخامس الذى اخذ عنه ابن خلدون عصب نظريته ثم نقلها الى الحكام العرب حتى جعل « السلطان الظـاهر » يصف نفسه بأنه « ظـــل الله فى أرضه ، القائم بسنته وفرضه » (ص ٣٧) واوشك ان ينجح فى جعل الأمة العربية تتقدم على نسق أوربا خطوة خطوة لولا أوباش العثمانيين الذين حالوا بينه وبين هذا الهدف العظيم بما احدثوه من حكومة ثيوقراطية (اى تقوم على أساس من الدين) .

استقراء لا يصل الا الى نتيجة واحدة هو ان كل عيب حدث فى الانسانية مرجعه اديان التوحيد ، واديان التوحيد كلمة ليس لها الا معنى واحد فى معجم الدكتور لويس هو « الاسلام » .

فهل هو الاسلام بوصفه عقيدة أم بوصفه نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ؟! لم يتعرض الدكتور لمناقشة أى شيء من ذاك ، ولكنه صب لعنته على الاسلام من حيث هو قوة دافعة موجهة ذات أثر على الأفراد والجماعات والدول فى البيئة التى كتب عليه سوء الطالع ان يولد فيها .



هذا الضغن كان له تأثير عجيب ، وكان رافدا ضخما لمنهج الدكتور فى تفسير الحقائق والوقائع . وهو منهج والحق يقال والفضل يحفظ لذويه — جديد على عالم الفكر والأدب والعلم ، وان لم يكن جديدا على الناس فى مسارب الحياة اليومية ، لأن له اسما فى اللغة الانجليزية التى يحسنها الدكتور هو Wishful thinking أو تفكير الرؤى والأطياف .

والخلاصة السريعة لخطواته المنهجية هى ان يصطدم الواقع بما يتمناه المفكر ، فيتمنى أن لو كان الواقع على صورة أخرى تتراءى له كالهلواس ، ثم لا تلبث هذه الصورة أو الرؤيا تشتد ولا يلبث الواقع الحق ان يبهت حتى يتلاشى فيظن المفكر أن الواقع هو هو ما كان يحلم به ويتمناه .

من ذلك تفاؤل الدكتور عن اربعة آلاف سنة وثنية فى مصر القديمة وكأنها لم تكن ، ومنه أنه نسى ان مصر المسيحية ليست وثنية ، ومنه انه نسى أن بين أوروسيوس وبين ابن خلدون مدة أطول مما بيننا وبين « الماجناكارتا » وأطول جدا مما بيننا وبين ابن خلدون نفسه ، ومنه انه نسى أن بين ابن خلدون وبين سيطرة العثمانيين على البلاد العربية وحيلولتهم بين أثره الحضارى المرتجى وبين التحقق فعلا أكثر من مائة سنة أى اكثر مما بين الثورة البورجوازية فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وبين ثورة ماركس الاشتراكية العلمية فى نحو سنة ١٨٤٧ ؛ ومنه أنه نسى فى سبيل تعليل اهتمام لطفى السيد بترجمة أرسطو أن ارسطو لم يكن يبشر بالديمقراطية على أنها احسن انظمة الحكم بل كان يبشر بحكم العلية العاقلة أو الأرستقراطية كما كان يسميها ؛ ومنه أنه نسى انه هو بنفسه وبقلمه وفى كتابه هذا قد اعترف بأن أول من أدخل الاشتراكية والفكر الاشتراكى فى مصر هو عباس العقاد ، فعاد بعد مقال واحد ليقول ان الذى عرفهم بفكر القرن العشرين هو سلامه موسى لأن العقاد وطه حسين وقاسم أمين ومن اليهم كانوا يعطونهم أفكارا محنطة بعيدة عن واقع القرن العشرين وسلامة موسى وحده هو الذى أعطاهم — شباب ذلك الوقت — فكر القرن العشرين حيا نابضا بالحياة . بل نسى فى هذا المقام ان العقاد لم يدع واحدا من المفكرين أو الأدباء ذا قيمة ومقام الا وكتب عنه وناقشه الرأى والحساب .

ولعل أعجب هذا المنهج الطيفى هو ان يجعل العقاد — نعم ، عباس العقاد — مبشرا بكل ما قام من أجله ماركس وانجلز ولينين ... تقولون كيف ؟! اذن فانظروا اليه وهو يحلل ويعلل فيقول : « والحجة الثانية التى يسوقها العقاد دفاعا عن حق الاشتراكيين فى التعبير عن مذهبهم هى الجبرية التاريخية التى ادت الى ظهور المذهب الاشتراكى أو ما يسميه هو « الضرورة » التى شعر بها الناس فنشأت فيها المبادىء الاشتراكية ، وفى هذا يقول : « وهذه المبادىء والقواعد لا تدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوذ والحوقلة لأنها نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة واهل النظر » . ولقد حاولت ما استطعت ألا اظلم العقاد الشاب فأنسب اليه الايمان بالاشتراكية العلمية أو أن أظلم الاشتراكية العلمية (لاحظ الاصرار على وصف الاشتراكية بالعلمية لتعلم أن المقصود هو

الماركسية) فأحسب عليهـــا العقاد الشاب ، وما اجتهادى هـــذا الا رغبة منى فى أن أجـــد انســـجاما بين تفكير هذا المفكر الكبير فى قمة شبابه وتفكيره فى كهولته المتأخـرة وشيخوخته الباكرة . ولكنى رغم هذا الاجتهاد اقف حائرا أمام بعض فقرات بحثه ما كان يمكن أن يخطها الا قلم مفـكر اشتراكى أصيل أو عاطف على الاشتراكية على أقل تقدير ..

فالعقاد يسلم بان الاشتراكية تنبع من حاجة لا ينفع فيها منطق ســـليم ولا منطق فاســـد ، فدليلها ليس فى صحتها او فسادها بل فى الحاجة اليها ، وهى حاجة بنص قوله لا تقبل المناقشـــة وما هذا الا تعبير مخفف لما تقول به المادية الجدلية من أن المادة تسبق الفكرة ... فالعقاد اذن كان فى شبابه من المسلمين بجبر المـــادة الذى يلزم المجتمع فى مرحلة من المراحـــل باتباع ما يقضى حاجاته من مذاهب الفكر . » (ص ٩٥ ـ ٩٧) .

أرايت الى الضرورة التى تدفع الانسان الى التفكير فى حل لها كيف صارت جبرية تاريخية ، ثم أصبحت اســـبقية للمـــادة على الفكرة ، ثم تحولت الى كون المادة سببا فى الفكرة ، ثم انتهت الى « جبر المـــادة » الذى يلزم المجتمع ؟! رؤى وأطيـــــاف وأضغاث أحلام يتمناها صاحبها فلا تلبث أن تتجســـد فى خلده واقعا يحجب الواقع الصحيح .

فاذا أردت يا عزيزى القـارىء ان تضحك ملء شدقيك فاعمد الى كتاب العقاد «الفصول» واقرأ مقـال « سر تطور الأمم » أما اذا قنعت بالابتسام فانظر معى الى شاهد واحد من هـــذا المقـــال ، حيث يقول عليـــه من الله الرحمة والرضـــوان : « وكيف تدفع الحاجـــة الى الاشتراكية بالسفسطة والمغالطـة او بالمنطـــق والبينة وهى كما يقول الدكتور سر « لا يعرفه الا علماء النفس الواقفون على أسرار الحياة » و « لا تأتى الأدلـة التى تقنـع به من طـريق العقل » ؟؟ » (انتهى الشـاهد العقـــادى) .

فهـــو يرد على الدكتور لوبون بنص كلامه على الصورة المشوهة التى أوردها للاشتراكية التى تقدم أطايب الشراب والطعام للمخمورين العاطلين كلما أرادوه ـ ومقـــال العقاد كله فى الرد على لوبون قائم على دحض الدكتاتورية التى يريدها لوبون ، وعلى تسفيه رأيه فى رفض مبدأ المساواة وعلى ان للنظام الاقتصادى والصناعى الحديث مساوىء تجات لأعيننا يجب حلها سواء أكنا اشتراكيين أم غـير اشتراكيين وأن هذه الأنظمة ليست من طبائع الأشياء بل من الممكن تغييرها وتبديلها .

« أن الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير ولا هى وعـد خيالى يبشر الناس بالتعادل فى الأقدار والتشاكل فى المنازل والأرزاق . كلا فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها انما تدعو الى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يعطى كل عامـــل ما يســـتحقه بعمله ، وأن ينتفع المجموع بأكبر مايمكن الانتفاع به من قوى الأفراد . » (الفصول ص ١٦٥) .

مسألة حيف واقع يراد رفعـــه واحلال العدل محله فلا يجور قوى على ضعيف ، وليس هنا شىء من أطيـــاف الخيالات التى أوردها الأستاذ الدكتور .

والى جانب هـذا المنهج العجيب المبنى على الأطياف والأحلام رافد آخر يمد الدكتور نسميه منهج « السبهللة » ولا نتورع عن استعمال هذه الكلمة العامية بعد أن استعملنا كلمة انجليزية من قبـــل ، فلعلهما أن يرضـيا الدكتور وصفا لمنهجـــه ، اكبر جزايه انجليزى واصـــفرهما عامى .

فمن « السبهللة » ان ينسب للقرآن الكريم كلاما ككلامه السقيم حيث يقول : « قالت بالنفى الـدائم الكامل على المسرح ما قالـه التنزيل الحكيم « من ان علم الروح من أمر الله » » (ص ٢٥٤) هكذا بين علامات التنصيص .

ومنها قوله ان بشر فارس مات فى سنة ١٩٦٢ عن ست وخمسين ســـنة وانه حصل على الدكتوراه من السوربون فى سنة ١٩٢٢ ـ ومعنى هذا حصوله عليها عن ست عشرة سنة ، فلعله أن يكون قد حصل على الشـهادة الابتدائية وهو نطفة فى صلب ابيه .

تعلم أن هذا منهج ينتهجه الدكتور حينما نعلم أنه كتب فى مقـــال ليس من مقالات هذا

الكتاب ، كتبه يؤبن به العقاد فذكر أن أباه مات في سنة ١٩٠٧ عندما كانت أمه في الثانية والثلاثين ، أي أنها ولدته في ١٨٨٩ وهي في الرابعة عشرة وانها ولدت اخاه الاكبر « الطاهر » الذي يكبره بنحو ثلاث سنين وهي في الحادية عشرة ، وأنهـا حملته وهي في العاشرة . ومن صح عنده ذلك فأصح منه حصول أحد الناس على الدكتوراه في سن المراهقة الباكر ولله في نقاده شئون .

ولقد كان بحسبنا ما بيناه من شخصية الكاتب وآرائه ومعتقداته ومنهجه ، لولا أن الجانب الأخلاقي ومعيار الناقد فيه شيء بالغ الأهمية .

ونحن لم نتعرض لأى قضية أثارها الكاتب أو لأى كتاب تناوله بالنقد لنناقشه رأيا برأى ، بل كان همنا أن نستجلى للناقد صورة لفكره ومنهجه وأسلوبه ، فاذا تعرضنا هنا لقضية الشعر الجديد ولصلاح عبد الصبور فما قصدنا الشعر الجديد ولا شاعره بالذات ، ولكن قصدنا معيار الأخلاق عند الناقد العجيب .

يقول وهو يستعرض ديوان صلاح عبد الصبور «أقول لكم» انه أوشك أن ييأس من قيمة الشعر الجديد وأن كل ما في الديوان – على عمق الوجدان فيه – كان يمكن أن يصاغ في قوالب الخليل ، ولربما أضفت عليه القوالب المعهودة نسقا وايقاعا ليسا الآن فيه . ثم يتساءل بعد ذلك عن معنى هذا الشعر الذى يراد به انطلاق الشاعر في حياة القرن العشرين فاذا حصيلة المنطلقين لا تزيد على حصيلة المتقيدين . وكاد اليأس يرين على نفسه وأوشك ان يقتنع بأن طريق الشعر الجديد « طريق مسدود » لولا ان أهلت عليه من الديوان قصيدة أعادت اليه الثقة فثاب الى ايمانه وأمانيه ، تلك هي « الظل والصليب » . نعم أن فكرتها « مقتبسة »من شاعر فرنسى ولكن هذا لا يعيبها ما دام الشاعر قد أضاف عليها وأضفى عليها من أسلوبه الفنى الرفيع الذى يتجلى بأروع صورة في قوله :

« دبيب فخذ امرأة ما بين اليتى رجل ... سام » ثم يحلل اوجه الجمال الرائع في هذه الصورة فيقول انها تتراءى بالجشتالت وكان الشاعر قد أخطأ من حيث أراد أن يقول « فخذ رجل ما بين اليتى امرأة » لأن الرجل هو الذى يكون بين فخذى المرأة في أثناء الأداء الجنسى . ولكنه لا يلبث أن يثوب الى نفسه فيتبين عظمة التعبير الفنى حينما يعلم أن الصورة لزوجين في فراشهما ، وأن الرجل في سأمه لا يكترث بالمرأة وأنهـا في سأمها تريد أن تستحثه بأن تلعب بفخذها ما بين اليتيه .

هذا الفن الرائع هو البشرى التى انفتح عنها باب السماء فأعادت للدكتور لويس بصيصا من الأمل في عماية اليأس ودجنة القنوط من مستقبل الشعر الجديد ، وأقنعته بأنه شعر يتوشج من الحياة بوشيجة قوية وأنه سينمو وسينطلق الى آماد أوسع وأوسع وسيرتفع الى آفاق أعلى وأعلى .

ترى ما هي هذه الآماد وهذه الآفاق ؟! .

أهي مزيد من رفع برقع الحيـاء وخلع العذار !؟ .

أهي مزيد من الصراحة في وصف الأداء الذى يعرفه كل انسان ويستغنى بالتلميح عن التصريح ؟! ثم تكون هذه الصراحة الفاضحة هي معيار الفن الرفيع عند ناقد يؤثر الرمز في القصص والمسرحيات على التصريح بالرأى والفكرة ؟ وهل انقلبت الموازين حتى أصبحنا نورى بثمار الأفكار ونصرح بأفعال الحيوانات ؟! .

أم هي مزيد من ضرورات الحياة البذيئة التى تشمل مالا تشمله الغريزة الجنسية ، ويقتضى الحيـاء أن نكنى عنها ولا نصرح بها كالحلاوة الفردية في المرحاض ؟!

لست والله أدرى ما هي تلك الآفاق التى ترتفع اليها ولا تلك الآماد التى نجوبها فيما وراء الردهة التى يصورها دبيب فخذ امرأة بين اليتى رجل .

انما الذى أدريه أن هذا الكلام هذر وخلع عذار .

ذلك هو الناقد وذلك نقده ومعياره : يصيب حيثما استحال عليه ان يخطىء ، وينفع حيثما تعذر عليه ان يضر او يضلل ، ويصدق حيثما استعصى عليه ان يكذب أو أن يحرف ، ويمتع كلما امتنع عليه ان يقرف أو أن يثير .

أحمد ابراهيم الشريف



التليفزيون وآثره فى حياة اطفالنا

تأليف

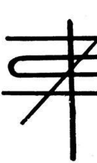
ولبور شيكرام
جالك ليل
ادوين باركر

ترجمة : زكريا سيد حسن
مراجعة : تماضر توفيق

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة ٣٢٨ ص ٢٣×١٧ سم الثمن ١٥ قرشا

يشكل التليفزيون – منذ دخل حياتنا – وسيلة خطيرة للتثقيف والاعلام والترفيه ، بما له من ميزات لا تتوفر فى اية وسيلة اخرى ، فهو يستطيع نقل الخبرة والمعرفة وقت حدوثها – أو بعدها بقليل – وقبل غيره من الوسائل ، وهو يتميز بأنه وسيلة سمعية وبصرية معا ، وبهذا يمكن عن طريقه تقديم هذه المعرفة عن طريق الكتابة ، والصورة ، والصوت فى وقت واحد ، كما أن للتليفزيون ميزة خاصة وهى تقديم المعرفة على صورة يمكن للذهن أن يستوعبها بسهولة،مثال ذلك الخدمات التى تقدمها البرامج التعلمية فى النواحى العملية والعلمية أو الالعاب الرياضية ، كما أن آلات التصوير التليفزيونية لتستطيع أن تنتقل الى امكنة لا يمكن للمشاهد العادى أن يصل اليها ، وهكذا يرى المشاهد على الشاشة مناظر خارجية أبعد من حدود البيت والبيئة المحيطة بل والوطن كله ، فهو يفتح نافذة على العالم الكبير فيكتشف المحاق المحيط ، ويستطلع اركانا بعيدة من الدنيا وعجائب ما وصل اليه الانسان فى السفر عبر الفضاء .

ولا يحتل التليفزيون هذه المنزلة بالنسبة للكبار فحسب ، بل انه يحتلها فى المقام الاول



بالنسبة للأطفال ايضا ، فان مشاهدة التليفزيون بالنسبة للطفل نوع من السلوك يستغرق فيه لارضاء حاجات نفسية احس بها من قبل او لانه يتوقع ان يشبع بها رغبة يحس بها الآن او لانه يجد فيها مايعينه على الهرب من الصراع النفسى والشعور بالفشل الذى يحس به فى عالم الواقع أو ربما ليجد فى برامجه بعض العون أو فكرة صائبة لحل مشاكله .

من اجل هذا قامت دراسات عديدة تبحث علاقة الطفل بالتليفزيون ، والدور الذى يلعبه فى سبيل تنشئته تنشئة سليمة باعتبار الطفل ارهاصة لرجل المستقبل الذى تحرص كل دولة على رعايته وتربيته على أسس سليمة ، وليس افضل من التليفزيون وسيلة مجدية فى هذا السبيل .

ويعتبر كتاب « التليفزيون وأثره فى حياة أطفالنا » من خير الأبحاث فى هذا الميدان واحدثها . فقد بدأ المؤلفون الثلاثة بحثهم هذا عام ١٩٥٧ بقصد الدراسة المتصلة للوصول بنتائجها الى بعض المعرفة عن استعمال الطفل للتليفزيون فى الولايات المتحدة وكندا ودور التليفزيون فى حياة الطفل كما نفهمه نحن الكبار . وقد توصل الباحثون الى نتائج عظيمة الأهمية حول الظروف التى تحيط بالأطفال عند مشاهدة التليفزيون والظروف الأخرى التى يكون للبرامج التليفزيونية انطباعات على نفوس الأطفال . واستغرقت الدراسة ثلاثة أعوام متوالية قدم الباحثون خلالها احدى عشرة دراسة مقارنة شملت منطقة سان فرانسسكو ومناطق من روكى ماونتين وبلدتين فى كندا ومدينة دنفر بكولورادو .

واهتم الكتاب من خلال هذه الدراسات المتعددة بالاجابة على أسئلة هامة تعد مثارا لكل ما يتعلق بالموضوع من نقاط ، من هذه الأسئلة :

– هل يعمل التليفزيون على الاقلال من معرفة الطفل أم هو على العكس يساعد على توسيع مداركه وزيادة معرفته ؟ .

– هل يهبط التليفزيون بمستوى الذوق عند الأطفال ؟ .

– هل يغير التليفزيون من القيم لدى الأطفال ؟ .

– هل يساعد التليفزيون على انضاج عقلية الطفل قبل الأوان ؟ .

– هل يتعلم الأطفال الجريمة والعنف من القصص المثيرة ومشاهد العنف التى يعرضها التليفزيون ؟ .

– هل يتأثر الطفل بالتليفزيون الى حد الادمان على المشاهدة والانعزال عن المجتمع ؟ .

فى هذه الدراسات جمعت معلومات من ٥٩٩١ تلميذا و ١٩٥٨ من الآباء ومئات من المدرسين والموظفين وكثير ممن لهم علم بالموضوع فى عشر بيئات من الولايات المتحدة وكندا تمثل مختلف المدن والولايات فى مناطق مأهولة واخرى نائية ، منها الزراعى والصناعى حيث تتمثل فيها كل ما وصل اليه التليفزيون من تطور يضاف اليها البيئة التى لم يكن التليفزيون قد دخلها من قبل . .

واحب فى بداية هذا العرض ان انبه المسئولين عندنا الى أهمية هذه الدراسة وخطورة ما وصلت اليها من نتائج بحيث يصح أن نوليها أكبر عنايتنا وأن نعمل على الأخذ بما جاء فيها من توجيهات علمية جادة ، فما احوجنا ونحن نبنى مجتمعا جديدا يحتل فيه الاهتمام بالطفولة مجالا كبيرا أن نأخذ بما جاء فى مثل هذه الأبحاث من نتائج هامة .

وما احوجنا الى تشكيل لجنة ثورية من جميع المهتمين بامر الطفولة والقائمين عليها فى التليفزيون للقيام ببحوث ميدانية فى البيئة المصرية تتفق وظروفنا واحتياجاتنا ليكون التليفزيون العربى

خير مرآة تعكس شتى متطلبات اطفالنا ، وما ينبغى علينا نحوهم من تربية قويمة وتوجيه سليم .

يقدم الكتاب فى الفصل الثانى دراسة مقارنة طريفة فى بلدتين تمثلان ٥٠٠٠ نسمة فى كل منهما ، احداهما – واطلق عليها اسم راديو تاون – لم يدخلها الارسال التليفزيونى ، والأخرى – وأطلق عليها اسم تليتاون – دخلها الارسال التليفزيونى . وتبين الدراسة المقارنة أن التليفزيون فى البلدة الثانية يأخذ من وقت أطفالها الكثير بحيث لم يعد لديهم الوقت الكافى للاستماع للراديو أو مشاهدة السينما أو القراءة الا لفترات انخفضت الى النصف فى أغلب الحالات .

وقد ثبت مثلا ان الذهاب للسينما انخفض ٥٤٪ ، وتأخر موعد النوم بمعدل ربع ساعة كل يوم ، وانخفض معدل اللعب الى ساعتين بعد أن كان ثلاث ساعة ونصف كل يوم ، كما انخفضت نسبة قراءة المجلات والصحف والكتب الى ما يقارب ٣٠٪ .

معنى هذا أن التليفزيون قد قام بارضاء حاجات الطفل التى كان يشبعها من قبل بالمجلات والكتب والاستماع الى الراديو بوسيلة افضل افسحت مجال الرؤية امامه ، وعرضت الانباء وشرحت العلم فى قاعة الدرس ، وعرضت صورا من شتى انحاء العالم لم يكن متيسرا له الاطلاع عليها الا بصعوبات كثيرة .

وفى الفصل الثالث « الطفل وكيف يشاهد برامج التليفزيون » عرض لحقائق أساسية مدعمة بالارقام عن برامج التليفزيون التى يشاهدها الطفل فى مراحل السن المختلفة فى الكم والنوع ، ومدى ما تعنيه فى نظر الطفل بمقارنتها بالوسائل الترفيهية الأخرى ، ففى الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية يقضى الطفل أمام التليفزيون معدل ساعتين كل يوم ثم يرتفع هذا المعدل الى ٤ ساعات عندما يصل الطفل الى نهاية المرحلة الابتدائية وبداية الاعدادية ، ثم يأخذ فى الانخفاض تدريجيا أثناء الدراسة الثانوية ، وثبت بالدراسة ايضا ان نسبة ٣ر٣٣٪ من أطفال سن الثالثة يستعمل التليفزيون و ٨٠٪ من سن الخامسة يستعملونه ، ٩٠٪ من سن السادسة يستعملونه كذلك .

هذا من حيث السن ، أما من حيث الجنس فهناك فروق كثيرة بين الفتيان والفتيات بالنسبة لأذواقهم فى اختيار البرامج .

فبينما تتجه الفتيات فى وقت مبكر نحو البرامج التى تتصل بمسئولياتهن المستقبلة فى فترة المراهقة والنضج ، يتمسك الفتيان بأذواقهم الخاصة فى اختيار ما يروقهم من برامج المغامرات والاثارة ويهتمون بالموسيقى ، وبعد ذلك يبدا اهتمامهم بالشئون العامة .

ومن حيث القدرة العقلية ثبت ان النابهين من الأطفال يميلون الى فحص الأشياء قبل غيرهم ويقومون بالأعمال الصعبة ويميلون الى البرامج الجدية والقراءة الثقافية والعلمية وما الى ذلك من النشاط الجدى .

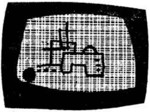
اما الأطفال الأقل ذكاء فهم يقبلون على التليفزيون أكثر من غيرهم ويهتمون بالقراءة أقل من غيرهم ، ومن المحتمل أنهم يختارون من البرامج كثيرا من قصص الجريمة والتمثيليات وأفلام المغامرات والموسيقى .

وثبت أيضا أن للأسرة دخلا كبيرا فى تشكيل ذوق الأطفال وميولهم نحو مشاهدة برامج معينة وذلك حتى سن العاشرة من حياتهم ، ولا يبدءون التحرر من هذه التبعية الا فى سن المراهقة .

وثبت كذلك ان هذا الميل يتبع المستوى الطبقى للأسرة ، فاطفال الأسرة المتوسطة الدخل – والثقافة بالتالى – يعتنقون مبدأ الاتجاه نحو العمل الايجابى وتحسين المستوى ، ويميلون الى المشاهدة مدة أقصر من نظرائهم فى الأسر الأكثر غنى .

وتستمر الدراسة الاحصائية حول ما يفضل الأطفال مشاهدته فنعرف أنهم يهتمون بمنوعات الأطفال ومغامراتهم والقصص العلمية التى تتفق وعقلياتهم ، وأفلام المغامرات والجريمة والتمثيليات ذات المواقف (المسلسلات) ومنوعات الموسيقى الشعبية ، والى جانب هذا يميل الأطفال الى مشاركة الكبار فى مشاهدة البرامج الخاصة بهم ، فاطفال سن ست سنوات يشاهدون ٤٠٪ من برامج الكبار ، وأطفال سن ١٢ سنة يشاهدون ٧٩٪ من برامج الكبار . وهذا يدل على أن

التليفزيون قد اكتسب حب الأطفال واحترامهم ، لدرجة أن ٩٨٪ من الأطفال صغار السن يفضلون التليفزيون على غيره من وسائل ، وكذلك ٩٦٪ من الأطفال فى المرحلة الثانوية ، و ٣٨٪ من طلبة الجامعات ، وذلك فى سؤال وجه الى عدد كبير من كل فئة منهم عن مدى تفضيله للتليفزيون عن غيره من وسائل مثل الراديو والكتب والسينما والمسرح ..



ويتناول الفصل الرابع – وهو بعنوان هدف الطفل من مشاهدة التليفزيون – الأسباب التى من اجلها يشاهد الأطفال التليفزيون ، ومنها الاحساس السلبى بالسرور نتيجة للترفيه الذى يقدمه الجهاز ، حيث يعيش الطفل الجو الخيالى للقصة أو يشترك بطريق التعويض فى مباراة مثيرة يشاهدها ، أو يرى فى برنامج آخر شخصيات جذابة ، أو ليتخلص من مشاكل الحياة الواقعية وسأمها ، أو ليشبع كل رغباته فى المتعة والترويح وهو جالس فى بيته عن طريق جهاز يكون دائما رهن اشارته .

وقد نلاحظ ان التليفزيون بذلك لا يشجع على اقامة علاقات بين الناس ، بل يدعوهم الى الانطوائية بعيدا عن الحياة والاستغراق فى الصور التى تعرضها الشاشة فى عالم الخيال ، وان مشاهدة التليفزيون فى جوهرها سلوك سلبى يستسلم له الطفل ليستمتع ببرامج معدة له دون ان يكلفه ذلك جهدا أو مالا .

ولكننا نخالف هذا الرأى ، فالتليفزيون لا يشجع ابدا على السلبية او الانطوائية ، بدليل ان الأطفال فى أقوال لهم يعترفون بأنهم يتعلمون بعض الأشياء من التليفزيون ويتعرفون على عادات الناس فى البلاد الأخرى .

فالفتيات مثلا يتعلمن طريقة تصفيف الشعر أو طريقة المشى الصحيح والحديث واختيار الملابس ، والفتيان يتعلمون بعض المهارات الرياضية وحياة مختلف الشعوب .. كل هذا يكسبهم معرفة بكل جديد عليهم وبالتالى يشجعهم على الأخذ بما يفيدهم منه ليطبقوه فى حياتهم الجارية . ثم أن استخدام التليفزيون فى المدارس لأغراض تعليمية أو فى النوادى ، أو حتى فى المنزل قد قوى من العلاقات الأسرية ، ووجه أنظار الآباء الى ما ينبغى عليهم تجاه أبنائهم ، كما أننا فى غالب الأحوال نرى الطفل وقد زامله بعض اخوانه فى المشاهدة وتبادل الرأى حول ما يشاهدون .

والتليفزيون يقوم بوظيفة اجتماعية خطيرة ، وهى أنه أصبح وسيلة لاجتماع أفراد الأسرة فى أوقات معينة فضلا عن أنه يخلق باستمرار موضوعات للمناقشة والحديث بين التلاميذ فى المدرسة .

وقد لوحظ أن برامج التليفزيون – بالنسبة لطفل – تنقسم الى نوعين ، نوع خيالى يشجع المشاهد على أن يتخلى عن مشاكله فى عالم الواقع والاستسلام والاسترخاء ، ويشجع على العاطفية ، ونوع واقعى يجعل المشاهد على اتصال دائم بمشاكل الحياة الواقعية ويشجعه على الانتباه وبذل الجهد والايجابية فى التفكير والسلوك وتزيد حصيلته من المعرفة ، والطفل فى حاجة الى النوعين فى مراحل معينة من حياته ، فعالم الخيال يمده بخبرة متحررة من القيود ، ويرفه عنه بأبعاده عن متاعب الحياة وثقلها ، ويحقق له رغبة يعوض بها رغبة أخرى ، وعالم الواقع ينقل له الخبرة والمعرفة فى سن مبكرة على صورة يمكن للذهن أن يستوعبها بسهولة .

هناك – الى جانب هذه المزايا للتليفزيون وبرامجه – بعض المساوىء مثل عجز المشاهد أحيانا عن متابعة السرعة التى تعرض بها الصورة على الشاشة ، كما انه من العسير اعادة البرنامج أكثر من مرة الا اذا كان مسجلا ، فضلا عن أن التعلم من التليفزيون صعب بسبب الواقعية البحتة المتبعة فى طريقة العرض بالوسائل السمعية والبصرية .

ان المستوى العالى من التفكير المجرد الذى ترتبط به الوسائل المطبوعة قد تكون اكثر نجاحا فى تركيز الانتباه على الأشياء المجردة مما يزيد فرص التعلم والحفظ وتساعد على تطبيق ما يتعلمه الانسان فى المواقف الجديدة التى تصادفه .

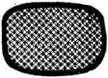
ومن مساوئه أيضا أنه أحرز نجاحا كبيرا فى ميدان الترفيه بعرض البرامج المتصلة بالخيال حتى أن الجانب الأكبر من انتباه المشاهد واهتمامه بتركزه على هذا الاتجاه وبذلك تبدو عملية طلب المعرفة عن طريق التليفزيون وكانها استعمال غير طبيعى للوسيلة . وتطبيقا لهذا ثبت بالاحصاء أن مشاهدة التليفزيون قد سببت نقصا وتخلفا كبيرا فى قراءة الكتب ومشاهدة السينما لأكثر من النصف من عدد المشاهدين من الأطفال .

ويشرح الفصل الخامس من الكتاب ما يتعلمه الطفل من التليفزيون بالتفصيل ، وقد اتضح للباحثين أن الذين يفيدون من التليفزون هم الأطفال الأصغر سنا والأقل ذكاء ، واتضح كذلك أن الأطفال الذين فى بيوتهم أجهزة تلفزيونية يكونون متخلفين قليلا فى دراستهم عن غيرهم ، وأن بدءوا حياتهم الدراسية ولديهم حصيلة لغوية من المفردات اكثر من غيرهم ، ومع هذا فقد أتاح التليفزيون لهم فرصة أكبر للتعلم والادراك من العالم الذى حولهم ، كما زودهم بخبرات متصلة بالموضوعات الخيالية والواقعية معا ، وثبت من البحث أيضا أن التليفزيون يفيد الأطفال الأقل ذكاء بدرجة أكبر مما يفيد متوسطى الذكاء ، وان كانت أكثر مشاهداتهم للبرامج الخيالية ، أما الأطفال الأذكياء فهم يتعلمون أكثر من غيرهم كل أنواع المعرفة التى يمكن تحصيلها من مختلف المصادر ، وخاصة من البرامج الواقعية ، كما انهم اقل من غيرهم مشاهدة للتليفزيون لأنهم يستطيعون بقدراتهم العقلية تحصيل قدر أكبر من المعارف من مصادر اخرى غير التلفزيون مثل الكتب والمجلات والقصص وغيرها .

أما ما يعلمه التليفزيون — الى جانب ما ذكرناه — فهو ما يسهم به فى امداد الطفل بالمعرفة التى تتصل بالبرامج الخيالية (مغامرات — قصص — ... الخ) ، وكذلك المعرفة التى تتصل بالخبرات الواقعية (الشئون العامة الجارية من أخبار وتعليقات ومسابقات .. الخ) والمعرفة التى يكتسبها الطفل من المدرسة (المواد الدراسية) .

معنى هذا أن التليفزيون يوسع آفاق الطفل ومعرفته فى شتى المجالات ، وقد اتضح مثلا ان التليفزيون - امكنه ان يقوم باعباء التدريس لمنهج كامل فى احدى الكليات بشيكاغو ، وأمكنه تدريس مناهج كثيرة مختلفة فى المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد شجع هذا على اقامة ٤٧ محطة تليفزيون تعليمية فى الولايات المتحدة فقط .

ويتناول الفصل السادس عاملا اجتماعيا هاما من عوامل تأثير التليفزيون فى الطفل ، ذلك هو الطابع الاجتماعى والبيئة المحيطة به ، فمما لا شك فيه أن الأسرة تلعب دورا خطيرا فى جميع مراحل حياة الطفل ، وبها يتشكل اسلوبه فى الحياة وسلوكه مع اخوته وزملائه فى الحى والمدرسة ، ويبلغ هذا التأثير مداه فيما يميل اليه أعضاء الأسرة الكبار من اتجاهات فكرية ، فلا شك أيضا أن الاتجاهات الفكرية فى حياة الفرد هى التى تشكل السمات البارزة فى تكوينه ويعتمد النضج العقلى للطفل على مدى التأثيرات الفكرية التى يتلقاها من الأسرة ، وقد سبق فى احصاء أن ذكرت أن الاتجاه نحو مشاهدة البرامج الواقعية يزداد كلما ازداد نمو الطفل الجسمانى والعقلى ، متأثرا فى هذا بالكبار والبيئة المحيطة به ، فضلا عن أن للذكاء دورا كبيرا فى هذا المجال وقد ثبت احصائيا ان الأسرة كلما



ازداد مستواها الثقافي والمادي كلما كان الاهتمام – وبالتالي الاستفادة – ببرامج التليفزيون أشد أثرا . ومن هنا كان التقسيم الاجتماعي للأسر بحسب رأى مؤلفي الكتاب الى مستويات تضم بالتدريج : الأساتذة ، مديرو الأعمال ، الملاك ، رجال الأعمال ، رجال الدين ، ثم غير الفنيين ، رجال الخدمات ، العاملون في الزراعة . اما من حيث الثقافة فينقسمون الى فئات تتدرج من الحاصلين على الدراسة الجامعية ثم الحاصلين على الدراسة الثانوية ثم الحاصلين على الدراسة الابتدائية فمن دونهم ، ومن الجداول الاحصائية ثبت أن ٤٤٪ من أبناء الطبقات العليا يستعملون الوسائل العامة طلبا للمعرفة ، بينما تبلغ هذه النسبة في أبناء الطبقات العاملة ١٥٪ . وتبلغ نسبة الباحثين عن الخبرات الخيالية ٨٪ من أطفال الطبقة العليا ، بينما تبلغ هذه النسبة ٣٢٪ من أبناء الطبقة العاملة . وثبت كذلك انه كلما انخفض المركز الاجتماعي والمستوى الاقتصادي في الأسرة كلما زادت نسبة استعمال التليفزيون ومشاهدة البرامج الخيالية ، ونقص الاتجاه للواقعية ، والعكس صحيح اذا كان المستوى الاجتماعي والاقتصادي مرتفعا .

وهكذا يتضح ان التغيير على نطاق اكبر يحدث بين ابناء الطبقة المتوسطة ، اما ابناء الطبقة العاملة فيتغيرون بدرجة أقل ، ومعظم الذين يتغيرون منهم يتحولون الى استعمال التليفزيون لمدة قصيرة ، أما الآخرون فانهم يقللون من استعمالهم للتليفزيون ويتجهون الى الخبرات الواقعية ، ويعلل المؤلفون هذا بأن أفراد الطبقة المتوسطة يسيرون وفق طابع من السلوك يمكن أن يطلق عليه « الارضاء المؤجل للرغبات » وهم يشعرون أن أمامهم التزاما أدبيا نحو انفسهم فيقتصدون بعض المال ويرسمون الخطوط العريضة لحياتهم ، ويؤجلون او يزهدون في تحقيق الاستجابات لنزعاتهم .

اما الطبقة العاملة فان افرادها يتميزون بلون من السلوك يمكن ان تطلق عليه « تلبية الدوافع » وهم أكثر من الآخرين استعدادا للقيام باعمال العنف الجسمانية – كالضرب والركل – وأن يعبروا عن مشاعرهم بصراحة ، ولديهم حافز ضعيف على الرقي الى المستويات الاجتماعية الأعلى ، ويفضلون التمتع بالحياة بدلا من الانتظار للغد .

ثم يتناول هذا الفصل العلاقات بين أفراد الأسرة فيقرر أن العلاقات اذا كانت طيبة فان الطفل يلازم أفراد الأسرة في ميولهم العامة نحو مشاهدة التليفزيون أو الانصراف عنه ، ونحو الاستفادة مما فيه من برامج أو مشاهدته لمجرد تزجية الوقت ، ولكن اذا كان الطفل على غير وفاق مع والديه فمن المحتمل أن يلجأ الى التليفزيون حيث يجد فيه فائدة مزدوجة للهرب منهما وفي نفس الوقت للانتقام منهما خلسة بالاقبال على سلوك لا يرضيهما .

فالطفل في الواقع صورة حية لما يسود بيئته الصغيرة في البيت ، أو الكبيرة في المجتمع المحيط به ، يدل على هذا الطموح المتزايد عند أطفال الأسرة الغنية الى حدود ونسب عالية بينما هذه النسب تنخفض الى النصف بين اطفال الأسر الدنيا ، وخاصة فيما يتعلق باستكمال مراحل التعليم .

ويعد الفصل السابع مكملا لاتجاه الفصل السادس من حيث أنه يتناول العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد الأسرة ومشاهدتهم للتليفزيون ، وقد ثبت أن هناك علاقة بين الذكاء والطبقة الاجتماعية والدين ومدى مشاهدة التليفزيون ، فالأطفال الذين يشعرون بالاحباط في العلاقات الأسرية يميلون الى التنفيس عن مشاعرهم بطريقة تعويضية بمشاهدتهم للبرامج الخيالية ، وزيادة مدة استماعهم للراديو ، ومرات ذهابهم للسينما ، وقلة عدد الكتب والمجلات التي يقرءونها ، والعكس يحدث اذا كانت العلاقات على مستوى طيب ، بل أن سلوك الطفل يتحسن بالمجتمع ويصبح أكثر فعالية وايجابية اذا كان السلوك في الأسرة على مستوى تربوى سليم ، **وقد استطاعت برامج التليفزيون الموجهة**

فى بعض المدن الأمريكية ان تقلل من الميول العدوانية عند الأطفال الذين يشعرون بالاحباط او الصراع ، وخاصة عن طريق البرامج المثالية او برامج اخرى تستهوى الأطفال فى سنيهم المختلفة فتفرغ مالديهم من شحنات عدائية الى سبل اخرى يفضل فيها ان تتضمن توجيهات تربوية غير مقصودة او متعمدة .

وأخيرا نأتى الى الفصل الأخير فى الكتاب وهو بعنوان « ما يحدثه التليفزيون من أثر » لنطلع على حقائق هامة كثيرة يحدثها التليفزيون فى الطفل باعتباره كائنا حيا فى مرحلة التعلم ليكون انسانا ، أو باعتباره مخلوقا بشريا صغيرا يتدرب اجتماعيا على يد من هم اكبر منه حتى يأخذ مكانه اللائق فى المجتمع .

وتتلخص تأثيرات التليفزيون على الطفل فى عدة نواحى :

أولا : الآثار الجسمانية : ، وقد ثبت أن مشاهدة التليفزيون لا تحدث أضرارا كبيرة للبصر ما دامت الرؤية والاضاءة مريحة ، وأن السهر لمدة طويلة قد يحدث بعض المتاعب أثناء الصحو فى اليوم التالى .

ثانيا : الآثار العاطفية : وقد ثبت أن أعمال العنف لا تخيف الأطفال الا فى حالات قليلة منها وجود البطل الذى يستهوى الطفل فى موقف يتهدده بالخطر ، واذا ذكره موقف عنيف بأحد المخاوف التى مرت به فى حياته ، أو يكون الطفل فى سن صغير لا يسمح له بتحمل الموقف الذى يراه ، وفيما عدا هذا فلا شىء يخيف الطفل لأن ما يراه يعد من الأعمال المألوفة فى نظره ولأنه يعرف نتائجها سلفا .

ثالثا : آثار فى مجال المعرفة : وقد سبق القول بأن الأطفال بوجه عام يلتحقون بالمدرسة وعندهم حصيلة من المفردات الجديدة ، ثم يدخل معه مجال العلم فيزود بمعارف مدرسية ، ومعارف واقعية أو خيالية بحسب نوع البرامج المقدمة ، وكل هذا يكسب الطفل مزيدا من المعرفة والفكر ، كما يستثير فيه النشاط العقلى الخلاق فى تقليده لبعض المواقف أو استزادته من المعرفة حوله بقراءة كتب أو مجلات تتصل بنفس الموضوعات ، فالتليفزيون على هذا ينمى ذوق الطفل كما يساعد على أخذ صورة صحيحة متزنة من حياة الكبار ، بل على انضاج شخصيته قبل الأوان هذا على افتراض أن البرامج الموجهة تتشكل وفق هذا النظام ، وعلى افتراض وجود الطفل فى بيئة سوية .

رابعا : آثار فى مجال السلوك : وقد تبين أن مدى استجابة الطفل لبرامج التليفزيون ومغزاه النفسى هو المقابل لما يحققه من ارضاء حاجاته فى مجتمع أسرته ومدرسته وأصدقائه ، ويمكن التنبؤ بأن الأطفال الأقل ذكاء والأكثر قلقا والذين على غير وفاق مع عائلاتهم يحتمل أن يستغرقوا فى مشاهدة التليفزيون كنوع من الهرب أو بقصد اثارة عواطفهم ، أما اذا كانت الصلات موفقة مع الناس فان المشاهدة تقل ، الا اذا كان لدى الطفل استعداد لمرض نفسى يجعله ينطوى أو يكثر من مشاهدة التليفزيون ، فان الجهاز أحيانا يعد بالنسبة للطفل المريض نفسيا بمثابة الأم الحنون سرعان ما يستجيب للطفل ويحقق آماله .

ولكى يكون الطفل ايجابيا مع الجهاز ومع نفسه ينصح المؤلفون الأسرة بأن تمنح الطفل ما يحتاج من العطف والأمن فى حياته بالمنزل ، ومساعدته فى التغلب على مشاكله مع جماعة اصدقائه ، وان يعطى فرصة للتحدث معهم ومناقشتهم .

وفى مقال ملحق بالكتاب عن آثار التليفزيون على الطفل للأخصائى النفسى لورنس فريدمان يصل الى أن الطفل الذى يتمتع بصحة عقلية طيبة وعلى علاقات حسنة مع أسرته وأصدقائه فلا داعى لأن نقلق عليه من ناحية مشاهدته للتليفزيون أو اتجاهه للسلبية أو تعلمه العنف والمواقف السيئة ، أو انحرافه عن الخط التربوى السليم أو انعزاله عن الحياة العامة أو المنزلية أو تشجيعه على ادمان المشاهدة بحيث تنسيه واجباته الأخرى ، وقد اتفق معه مؤلفو هذا الكتاب فيما وصلوا اليه من نتائج ، وقالوا أن اشباع رغبات الطفل بالطريقة التعويضية عن طريق مشاهدة التليفزيون لا تكفى لعلاج

ما يصادفه من الشعور بالاحباط أو للتخلص من المشاكل الاجتماعية ، كما أن رؤية مشاهد العنف من شأنها أن تزيد الميل عند الطفل الذى لديه هذا الاستعداد والميل من قبل .

وفى هذا السبيل أيضا وصلوا الى النتائج الآتية :

١ - أن بعض الأطفال الصغار وقليلا من الكبار يخلطون بين عالم الواقع وعالم الخيال ويقلدون الأعمال العدائية التى يرونها على الشاشة فى تصرفاتهم العادية فى الحياة .

٢ - الأطفال الذين يشاهدون التليفزيون وفى نفوسهم ميل نحو الاعتداء يحتمل أن يتذكروا الأعمال العدائية وأن يقوموا بمثلها اذا أحسوا بميل الى الاعتداء .

٣ - بصرف النظر عن المبادىء الأخلاقية والقيم نجد الأطفال على استعداد لتذكر العنف واستعمال أساليبه .

٤ - يرغب الأطفال فى أن يكونوا مثل الشخصيات الناجحة التى يرونها فى الخيال ويميلون الى تقليدها سواء كانت شريرة أم تعمل فى جانب الخير .

وهنا ينبغى على القائمين بأمور الطفل النفسية والتربوية أن يبحثوا عن الدوافع الأساسية المسببة للانحراف بدلا من الاهتمام بالمظاهر السطحية ، وقد ثبت من التجارب فى العيادات النفسية أن القلق وعدم الاطمئنان الذى يحيط بالفرد فى جو الأسرة له دور كبير فى انحراف الأحداث ، كما أن على التليفزيون واجبا رئيسيا أيضا وهو عدم اذاعة ما يشجع على الانحراف فى السلوك أو السلبية أو الانطواء أو الميل الى الاعتداء ، وهو يستطيع عمل هذا اذا توفر له ضمانات أهمها اشراك أولياء الأمور والأخصائيين النفسيين والاجتماعيين فى التخطيط لبرامجه .

ويختم البحث ببعض الأسئلة الموجهة الى رجال التليفزيون ويطالبهم بمزيد من الانتاج الجيد الجذاب والتقليل من أعمال العنف والجريمة ، واستثارة ذكاء الأطفال وقدرتهم على العمل والنشاط والعمل على ابراز حياة الشخصيات الكبيرة من النساء والرجال فى كافة الميادين ، أما الأسئلة الموجهة الى الآباء فتطالبهم بالمعاملة الحسنة وارشاد الأبناء الى خير البرامج التى تستثير فيهم النشاط الايجابى ، وهناك أسئلة اخرى لرجال الحكومة لكى تساعد على تيسير وتشجيع اعداد البرامج الصالحة للأطفال ، وأن يعمل المسئولون عن الصحة والتعليم مافى استطاعتهم فى هذا السبيل أيضا . اما خبراء الطفولة والمهتمون بدراستها فيطالبهم البحث بالقيام بدراسات متعمقة وطويلة الأجل لأثر التليفزيون فى حياة الطفل . وأخيرا يوجه المؤلفون نداءهم : « اننا نواجه مشكلة ، فاما التعاون بين بعض الهيئات ورجال التليفزيون أو الابقاء على الوضع القائم ، ان برامج التليفزيون بها ألوان مختلفة من الخبرة والمعرفة كما أن الطفل له خبراته ومعارفه ويعنينا أن يعمل التليفزيون على زيادة وتدعيم المعرفة الانسانية بدلا من اضعافها ، ويمكن تحقيق هذا الهدف بغاية البساطة وبأقصى فاعلية لا بجهود فردية من جانب المسئولين عن التليفزيون أو الآباء أو رجال التعليم أو رجال الدين ، وانما بتعبئة كل القوى العاملة فى المجتمع التى لها علاقة بموضوع الطفل والتليفزيون .

هذا النداء بعينه نوجهه الى المسئولين عندنا فى ختام هذا العرض آملين أن يعملوا على تحقيق ما جاء به وبهذا البحث الشامل الخطير ، فلعلنا نصل معا الى بناء مجتمع سليم ناهض يعتمد فى أساسه على الطفولة السليمة الناضجة .

محمد كمال الدين على يوسف

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● لم تكد تظهر كلمتى فى العدد الصادر من هذه المجلة فى شهر اكتوبر الماضى التى اشرت فيها الى نهوض وزارة الارشاد والانباء فى القطر العربى الشقيق **((الكويت))** بتحقيق امنية عزيزة على الادباء فى البلاد العربية ، هى طبع معجم **((تاج العروس من جواهر القاموس))** للسيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى طبعا يليق به كمعجم له مكانته الكبيرة — لم تكد كلمتى تلك تظهر حتى كان الجزء الأول من هذا المعجم قد اطل على المترقبين فى اجمل مظاهر الطباعة مضبوطا بعد ان كانت طبعتاه — اللتان أشرنا اليهما من قبل — خاليتين من الضبط مرهقتين للباحث حيث لم يراع فيهما بين الشواهد الشعرية وبين بقية كلام الشرح .

اما الطبعة الجديدة فانه الى جانب اخراجها على ادق أصول الطباعة الحديثة فقد روعى فيها الضبط الكامل ونسبة الاشعار غير المنسوبة — ما امكن — والاشارة الى مواضع نسبتها فى دواوين الشعر او كتب الادب واللغة وذكر اختلاف الرواية ، وتوثيق النصوص بالمراجع وبخاصة ما اعتمد عليه المؤلف ، مع الاشارة الى وجود الشاهد فى الصحاح وجمهرة ابن دريد وقواميس اللغة واللسان وأساس البلاغة ، وما يراه المحقق نافعا للباحثين كمعجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكرى مثلا .

وقد روعى فى المنهج الذى وضع لتحقيق هذا الكتاب ، واعتمدته وزارة الارشاد والانباء بدولة الكويت ، أن يكون وافيا بالغرض ، محققا للأمل فى الاستفادة بما فى تاج العروس من معارف ومعلومات . كما روعى أن يكون القائمون بالعمل لهم دراية واشتغال كثير باللغة ، الى جانب خبرتهم العلمية والعملية فى تحقيق التراث . من هؤلاء ؛ الأساتذة : عبد الستار احمد فراج — وهو الذى اقترح نشر الكتاب كما علمنا — وعهد اليه حتى الآن بتحقيق الجزءين الأول والتاسع وكتب مقدمة الجزء الأول وعرض فيها حياة المؤلف كما عرض امامنا تاريخ المعاجم التى سبقته ، والأستاذ على هلالى وقد حقق الجزء الثانى ، وحقق الأستاذ عبد الكريم العزباوى الجزءين الثالث والحادى عشر ، وحقق الأستاذ عبد العليم الطحاوى الجزءين الرابع والرابع عشر ، وقام الأستاذ مصطفى حجازى بتحقيق الخامس والثانى عشر ،وحقق الدكتور حسين نصار السادس والثالث عشر ، وحقق الأستاذ عبد السلام محمد هارون الجزءين السابع والعاشر ، وحقق الأستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم الجزء الثامن . وهؤلاء الأساتذة الذين ذكرناهم هم الذين قاموا فعلا بتحقيق ماعهد اليهم به من اجزاء وقدموها للطبع .

ونرجو الا يطول الأمد على نشر ماتم تحقيقه من أجزاء الكتاب ، وتحقيق الأجزاء الباقية ثم نشرها على الناس فى هذا المظهر الجميل الذى لم تبخل به وزارة الارشـــاد والأنباء فى دولة الكويت على هذا المعجم .

● وفى مشروع التراث العربى الذى تنشره « وزارة الارشاد والأنباء » بالكويت ظهر كتــاب **« مآثر الانافة فى معالم الخلافة »** فى ثلاثة أجزاء للعالم المصرى أحمد بن عبد الله القلقشـــــندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) وهو صاحب كتاب **« صبح الاعشى فى كتابة الانشـا »** الذى نشرته « الدار المصرية للتأليف والترجمة » فى طبعة مصورة بالاوفست عن طبعة دار الكتب فى أربعة عشر جزءا .

والقلقشندى يبدأ كتابه بالكلام على معنى الخلافة ، ومن تكون عنه الخلافة ، وشروطها ، وبيان الطرق التى تنعقد بها ، وما يلزم الخليفة للرعية ، وما يلزم الرعية للخليفـة ، ثم يسوق ذكر الخلفاء من عهد أبى بكر الصديق الى عهد المؤلف ، وهو فى خلال ذلك يروى الحـــوادث والماجريات فى دقة ونظام ، وهو يذكر الى جانب ذلك الدول المعاصرة لكل خليفـة ، ويذكر ولاة الأمصار ونصوصا من المكاتبات والعهـود التى كانت فى تلك العصور .

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الأســـتاذ عبد الستار احمد فراج .

● وقد اتم الأستاذ محمد رشاد عبدالمطلب تحقيق ذيلين لكتاب **« العبر فى خبر من غبر »** الذى الفه الامام الحافظ شمس الدين محمـد ابن أحمد الذهبى صاحب كتاب **« تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام »** وعدد كبير من كتب التاريخ حتى أطلق عليه اسم «مؤرخ الاسلام». وكتابه « العبر » الذى نشرت « وزارة الارشاد والأنباء » بالكويت اربعة أجزاء وتقوم الآن بنشر الجزء الخامس منه وهو الأخير . هو اختصـــار لكتابه الكبير « تاريخ الاسلام » قال انه « تاريخ مختصر على السنوات اذكر فيه ماقدر لى من أشهر الحوادث والوفيات ، ممـــا يتعين على الذكي حفظه ، وينبغى للطالب ضبطه ، ويتحتم على العالم احضاره » . ثم ذكر فى نهايته قوله « انتهى ما أردت ايراده من كبـــار الحوادث ، واكابر الناس من العلماء والرواة والأعيان » . وبداه من السنة الأولى من التاريخ الاسلامى حين هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وانتهى منه الى سنة ٧٠٠ هـ . على أنه لم يتقيد بما جاء فى كتابه الأول فقد ذكر أحداثا واعلاما فى « العبر » لم يذكرها فى التاريخ .

وقد حقق الأجزاء الأربعة التى ظهرت منه : الدكتور صلاح الدين المنجد وقــد حقق الاول والرابع ، والأستاذ فؤاد السيد وقـــد حقق الثانى والثالث .

أما **ذيلا** كتاب « العبر » اللذان أتم الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب وسيظهران فى هـــذه السلسلة ايضا ؛ **فاولهما** الفه الذهبى نفسه فانه لما امتد به الأجل بعد عام ٧٠٠ هـ — حيث توفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) — ذيل كتـــابه بكتاب شمل الحوادث من عام ٧٠١ — ٧٤٠ هـ .

أما **« الذيل الثانى »** فقد وضعه تلميـــذه الحافظ شمس الدين محمد بن على الحسينى، وكان من كبار علماء الحديث فى القرن الثامن ، ومن أعرف الناس بشيوخ الحديث المعاصرين له . وقد شمل تذييله هو الحوادث من سنة ٧٤١ هـ حيث انتهى أستاذه الذهبى الى سنة ٧٦٤ هـ . وتوفى الحسينى بعدها سنة ٧٦٥ هـ.

● وللذهبى كتــاب قيم نشرته فى مصر فى أربعة أجزاء كبار « دار احياء الكتب العربية : عيسى البابى الحلبى وشركاه » هو كتاب **«ميزان الاعتدال فى نقـــد الرجال »** ويعنى بهم رجال الحديث : نقلة العلم النبوى وحملة الآثار ، وقد جمع فيه أســـماء الرواة من الكتب الستة : البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى وابن ماجة ، فبلغ مجموع من ذكرهم أحد عشر الفا وثلاثة وخمسين اسما . وهذا يصور لنا عن مدى علم الرجل بالتاريخ الاسلامى ورجاله سواء اكانوا رجال دين أم رجال دنيا . ولقد قال ابن حجر عن هذا الكتاب انه من أجمع ماوقف عليه فى ذلك . ولم يكن عمله فى الكتاب مقصورا على النقل عن غيره من السابقين ، فقـد كان ناقدا المعيا ، يعقب على كلام غيره برأيه .

وكان هذا الكتاب قد طبع أول مرة فى كلسناد والهند سنة ١٨٨٤ م . ولكن الأستاذ على محمد البجاوى رجع فى تحقيق الطبعة الجديدة الى جانب المخطوطات الى كثير من المراجع الهامة .

وكانت هذه الدار قد نشرت من قبل كتابا آخر للذهبى بتحقيق الاستاذ على البجاوى أيضا هو كتاب « **المشتبه فى ضبط أسماء الأعلام والرجال** » وظهر فى جزءين كبيرين .

● ومن الكتب القيمة التى نشرتها « دار احياء الكتب العربية » أيضا كتاب يعتبر موسوعة ضخمة فى الأدب والتاريخ والفقه والتشريع ، وهو يضم من هذا كله نوادر مفقودة من الشعر والأخبار ، وهذا الكتاب هو « **شرح نهج البلاغة** » لابن أبى الحديد من علماء القرن السابع ، شرح فيه نهج البلاغة الذى جمعه الشريف الرضى من كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتوسع فى الشرح بما يكشف عن معرفة شاملة بكل تلك الفنون التى يزخر بها عشرون جزءا هى هذا الكتاب .

ولم تكد طبعته الأولى التى نشرتها هذه الدار بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم تبلغ الجزء العشرين منها حتى نفدت فى مدى ست سنوات ، فأعادت هذه الدار نشرها من جديد . غير أن هناك أمنية فى نفوس مقدرى هذا الكتاب هى أن تنشر هذه الدار فهرسا شاملا ييسر على الباحثين فى هذه الموسوعة الاهتداء الى ألوان المعرفة التى ضمها هذا الكتاب ، لا سيما وأن الطبعة الجديدة لا تختلف أرقامها عن الطبعة السابقة . فان للفهارس الآن القيمة العلمية التى يحظى بها الكتاب نفسه .

وللمكانة الأدبية الرفيعة التى يحتلها كتاب « **نهج البلاغة** » وحده تصدى لشرحه عدد من العلماء القدماء والمحدثين . وقد رأى الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ــ بعد أن تم له تحقيق شرح ابن أبى الحديد أن يعود الى «**نهج البلاغة**» ذاته فيشرحه شرحا ينحو فيه نحو القصد والايجاز بما لا يزيد عن تفسير الغريب ، وتيسير فهم المعنى ليكون ذلك غاية من يريد أن ينهل الأساليب الفصيحة من أعذب مواردها ، وأن يروض قلمه على التمرس بملكات البيان فى أروع صورها ؛ فييسر فهم كلام الامام على فى عبارة قريبة المأخذ ، واتبع طريقة ابن أبى الحديد مع التصرف الذى يقتضيه التلخيص . وصنع له الفهارس الفنية وأتبعها بمعجم لغوى للكلمات اللغوية الغريبة المشروحة .

● ونشرت تلك الدار كتاب « **بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة** » الذى ألفه جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وأودع فيه صفوة جميع الكتب التى سبقته فى هذا الشأن ، وزاد عليها ما انتقاه من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ومعاجم الشيوخ والتذكرات عدا مشاهداته وأخبار شيوخه وعلماء عصره حتى بلغ عدد التراجم التى ذكرها ٢٢٠٩ ترجمة؛ عدا الأبواب الملحقة بالكتاب مثل باب الكنى والألقاب والنسب والاضافات ، وباب المتفق والمفترق ، وغير ذلك مما يتصل بمن ترجم لهم . وقد ضم هذا كله الى جانب الفهارس المختلفة مجلدان ضخمان .

وقد سبق أن نشر محقق هذا الكتاب الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ثلاثة كتب فى هذا الباب هى « **انباه الرواة على أنباه النحاة** » للقفطى الذى نشرت دار الكتب ثلاثة أجزاء منه محققة تحقيقا علميا رائعا وتطبع الجزء الأخير منه الآن ، وكتاب «**طبقات النحويين واللغويين**» لأبى بكر الزبيدى ثم كتاب « **مراتب النحويين** » لأبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى .

● كان للأقدمين عناية فائقة بالتأريخ للبلدان والترجمة لأبنائها خلال هذا التاريخ كما فعل الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » ، وابن عساكر فى « تاريخ دمشق » ، وأبو نعيم الأصفهانى فى « تاريخ أصفهان » وغيرهم ، ومن هؤلاء أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى المكى ، كان مؤرخا وعالما بالأصول وحافظا للحديث ولد ومات بمكة وولي قضاء المالكية بها

واصله من فاس . قد توفى عام ٨٣٢ هـ . وقد وضع في تاريخ مكة كتابه « **العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين** » ويعد كتابه هذا أوفى مرجع لتراجم أعيان مكة ؛ ومن سكنها أو مات بها من الرواة والفقهاء والأدباء والشعراء والولاة وغيرهم فى مدى ثمانية قرون . وهو الى جانب ما أفاد من تصانيف المؤرخين ورواية الثقات تفرد بنقل ما وجده من تواريخ على شواهد القبور وما كتب على الأضرحة والمساجد والآثار حتى اجتمع له نحو أربعة آلاف ترجمة ، واثبت فى كتابه كثيرا من النصوص التى ضاعت أصولها .

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية بعد ان جمع أصوله المتفرقة فى العالم ، وتولى نشره أديب السعودية الشيخ محمد سرور الصبان ، فتم طبع أربعة أجزاء منه فى مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ويجرى طبع الخامس ؛ ولكن المطبوع قد حبس عن الناس حتى يتم طبع ثلاثة اجزاء أخرى باقية منه ، مع أن من الخير للكتاب وللقراء أن يتداولوه تباعا .

وللأستاذ فؤاد السيد جهود فى نشر عديد من آثار التراث كالعبر الذى أشرنا اليه ، « وطبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل و « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمره الجعدى وغيرها .

● « **أقوى من الزمن** » هو الكتاب الرابع والأربعون التى نشرها الأستاذ يوسف السباعى ، وهو مسرحية فى ستة فصول كانت وحى وقفة أمام السد يرقب فيها « المصرى عندما يستعرض قدرته واصراره وقوة جلده ، يسابق الزمن وهو يقضم الصخر ، ويشق الجبل ويسد النهر » . فتمنى أن يفعل شيئا مع هؤلاء الجبابرة الضاربين فى الصخر بمعاولهم فكانت هذه المسرحية التى سجل فيها اعجابه وشكره لأولئك الذين حققوا المعجزة كتبها بقلمه وسبح فيها بخياله ، وأفاض عليها من خفة الروح وقوة الملاحظة ما هى جديرة ، من الاعجاب . فهو يجري على لسان بطلة المسرحية وهى أميرة مصرية قديمة استوحاها من تاريخنا القديم اذ تقول وهى تخاطب رجلين من العاملين فى السد : « ثورة الشعب من أجل حق الحياة ، أولى من ثورته من أجل حق الآخرة .. والسد للحياة ، أولى من المقابر للجثث » .

ويدير هذه العبارة على لسان أحد الأبطال « لم يعد المستقبل ينمو كما يريد ، بل بات ينمو بارادة الانسان . برغبته فى الانماء ، وبقدرته عليه .. فى الحدود التى يريدها ، وبالقدر الذى يريده .. من أجل حاجاته وآماله » .

وقد نشرت هذه المسرحية مؤسسة الخانجى بمصر .

● عرفنا الأستاذ محمد طاهر الجبلاوى شاعرا مرهف الحس، متوثب الخواطر ، مشتعل العاطفة ؛ وذلك قبل أن يشتعل الرأس منه ومنا شيبا . كان ابان الحركة الوطنية فى السنوات الأربع التى أعقبت سنة ١٩٢٣ يفيض شعرا وطنيا بالاعجاب والتقدير . ثم التقينا به فى «ملتقى العبرات » الذى نشره سنة ١٩٢٥ . ثم طالت حقبة صمت الشاعر الا من كتاب يترجمه أو بحث يخرج به أو قصيدة ينشرها بين الفينة والفينة حتى أصدر فى سنة ١٩٤٨ ديوانه « هواتف وأحلام » . وهو هو الشاعر الذى عرفناه مرهف الحس ، متوثب الخواطر ، الا أن اشتعال الرأس شيبا كان قد أضفى على شعره من سمات التأمل كثيرا من سبحات التصوف وهمهمات التعبد وخاجات الحكمة ؛ فاذا ذلك كله يتجمع فى كأسه ليقدمه لنا أخيرا فى ديوانه الجديد « **من بقايا الكأس** » الذى نشرته « الدار المصرية للتأليف والترجمة » . وقد حمل الينا كأسه وهو « موفور الحجا وهى ميساء وبالحسن روية » ينظر الى ملكوت ربه فى سنا نظرات طفل ، ويرى الشيب ضياء وصفاء ، ومن خلال هذا الضياء وهذا الصفاء يشدو للربيع والحب ويقف أمام البحر كل صيف يرقب فتنة المصيف ولا يكاد يودع صيفا حتى يستقبل غيره والكأس روية ، ولم تزل بقاياها تبعث النشوة .

● ومن بغـــداد يطلع علينـا شاعر شاب تنشر له « مؤسسة الخانجى » بالقاهرة ديوانا جديدا من رقيق الشعر المنبىء عن شاعرية لها فى عالم الشعر باذن الله أثر قوى اذا استطاع صاحبها أن يخلص شعره من ظل شاعر آخر يقتفيه خطوة خطوة حتى تتضح معالم شخصيته هو ، فان شعره قوى وفياض بالعذوبة والجمال . فأما الشـاعر فهو الأستاذ حبيب الحسنى ، وأما الديوان فهو **« أغرودة نهد »** . وقد نشر له من قبل ديوانه الأول « ظنون وأغانى » .

● ومع شـهر رمضان الكريم نقدم كتابا جـديدا للدكتور حسين مجيب المصرى عنوانه **« رمضان فى الشعر العربى والفارسى والتركى »** نشرته « مكتبة النهضة المصرية » . وهو يسير فى فلك الكتب الأخـرى التى ينشرها المؤلف للتعريف بالصفحات المطوية من الأدب الاسلامى فى العربية والفارسية والتركية . فهذه الآداب فى واقع أمرها ليست الا صورا تشاكل الكثير من سماتها ، وأصـداء تتردد فيما تجاور من أرجاء . أما الوقوف على ما بينهـا من تماثل وتغاير ، فهو السبيل الأمثل الى الاحاطة علما بالحضارة الاسـلامية فى تطورها على تراخى العصور ، وتأثرها بعوامل البيئة واهتدائها بهدى الدين ، وخضوعها لسلطان المذهب والعقيدة . وقد قدم للقراء من قبل كتابا شـمل دراسة فى الأدب الاسلامى المقـارن « فى الأدب العربى والتركى » .

وفى كتـابه « رمضان » يدور الحديث حول عبـارات وعادات ومأثورات تجمع المسلمين فى المشارق والمغارب على صنيع واحد ، ان اختلف ففى الندرة ، وان تطور فلبواعث تدفع الباحث دفعا الى اكتناهها ، مما تتسع به آفاق الدراسة . والكتاب يدل على احاطة واسعة وشمول معرفة بكل ما اتصل بهـذا الموضوع فى الآداب الاسلامية الثلاثة .

● نشرت مكتبة « عالم الكتب » بالقاهرة كتاب **« ماذا حـدث فى السنة الجغرافيـة الدولية ؟ »** تأليف فرانك روص وتعريب الأستاذ عبد المنعم أبو السعود ومراجعة الدكتور محمد محمود الصياد الذى يحدثنا عن تاريخ تلك السنة التى كانت عملا رئيسيا فى تقدم الانسان وزحفه نحو مزيد من معرفتـه بالأرض وبالفضاء الذى يحيط بها ، وهى السنة التى حلق فيها الانسان لأول مرة فى العالم المجهول . . . فى الفضاء .

حسن كامل الصيرفى